مقتطفات من رواية

ها هو اليتيم بعين الله

للكاتب محمد رضا سرشار

ها هو اليتيم بعين الله: رواية إيرانية مترجمة تروي قصة حياة الرسول صلّى الله عليه وآله لغاية بعثته نبيًّا تمّ اختصارها واختيار مقتطفات منها علّنا ننعم بقراءة عذبة لبعض من الأحداث التي عاشها الرسول صلّى الله عليه وآله

1

-احفر زمزم! - وما زمزم؟

-ماء لا تُنزَح ولا تُذم احفرها واسقِ بها الحجيج الأعظم! أين.. أين؟

-أخبرني عن مكانها!

-في الحرم، بين الفرث والدم.

-هل من مزيد..، أخبرني عنها أكثر!

-عند قرية النمل، عند نقرة الغراب الأعصم.

-أنا؟!

قد اختفى ذاك الشبح المدّثر بحرير الضباب الناصع، بعد أن حلّ، ورحل خفيفًا كالسحاب، رقراقًا كالماء، مرفرفًا كالنسيم، كان واقفًا وقفته تلك في وجوم.

«في ليل صيفي، بينما كنا نيامًا على صوت عبد المطلب، يناجي ربه، وهو نائم. رأيتُ وجهه تحت القمر، وقد شمله العرق. بدأ يرتعد، ظننته مريضًا، قد اعترته حمّى. على مهل، أيقظتُه، رويدًا رويدا. » أفقت من النوم على ربتات زوجتي سمراء،...

حمدت ربّ الكعبة على انزياح الهمّ مني، وانفراج الغم بعد تلك الأيام العصيبة. أجل، لقد برح الخفاء، وعلمت حق اليقين أن رؤياي تلك كانت إلهية صادقة، لا أضغاث أحلام. لقد كان الله وحده هو العالم بما كنت أتحسسه من الحبور والأفراح؛ فقد منَّ عليَّ إذ اصطفاني لإسداء تلك الخدمة. بلغ بي الظمأ أقصاه. تناولت القدح من سمراء، وعببته في ولعٍ عبًّا، ثم أعدته إليها قائلاً هوّني عليك فأنا على خير!

تنفس عبد المطلب الصعداء، بعد فترة عصيبة مرّ بها كأنه تخلّص من أعباء باهظة، أوشكت أن تقصم ظهره ثم أشاح بوجهه عن قمة قعيقعان وألقى نظرة، ملؤها الحنان، على وجه زوجته قائلًا: وأخيرًا في ليلتي هذه، انكشف الغطاء، وها أنا سأنام بعد الآن مرتاح البال. قرّي عينا يا سمراء؛ فزوجك أُمر بحفر زمزم، زمزم البركة والنقاء، لقد منّ رب الكعبة على مكة ثانية، فشملها بحسن عنايته، وجميل ألطافه.

ولّى الأب وابنه وجههما شطر الحرم: أخذ عبد المطلب بيده مسحاة ثم استبق ابنه الخطوات، أما المارة كانوا يكبرون أمر سيد قريش، وينكرونه عليه مستفهمين: ماذا حل بشريف قريش ودهاه ليحمل المسحاة بنفسه، أين غلمانه، ما منعه أن يستغني بهم، ويوكل إليهم هذا العمل الخسيس!

هنالك، حيث كانا واقفين، ألقى الأب وابنه التحية على الكعبة، وما إن وطأ عبد المطلب أرض الحرم، حتى راح صدره يخفق.

"في مكان بين الفرث والدم"! عبارته هذه واضحة، ولا تنطبق إلا على منحر الحرم: في مكان يقرب من مقام هاجر.

ثم أخرج المعول من المكتل، وباعد بين الرجلين، وبَسمَل مستعينًا برب الكعبة، ثم هوى بالمعول، ليضرب ضربته الأولى.

فاض خبرنا، فصرنا حديث مكة وأشرافها منذ أن باشرنا العمل. في كل يوم يجتمع الناس من حولنا، ويتناقلون أخبارنا؛ وأحيانًا يدفع بعضهم حب الاستطلاع، فيلحّون عليّ بالاستفسار؛ ليعرفوا غاية أبي ونواياه، فلا أردّ عليهم بجواب.

وذات مرة، بينما كان أبي يحفر البئر، وأنا أنزح التراب بالمكتمل، إنثالت علينا

-إحتشد القوم حول ما حفر أبي وصاحوا به: عبد المطلب! أيا عبد المطلب، ألا تسمع نداءنا؟

كان عبد المطلب على عمق ثلاثين ذراعًا من الجبّ.

-أجل، أسمع.

-طابت أوقاتك يا عبد المطلب، لقد أنفقت جهدًا كبيرًا، ألا تريد أن ترفق بنفسك، وتهوّن عليها.

-يهوّن عليّ في الحبيب، الإعياء والنصب، بل يحلو ويطيب.

-حسنًا حسنًا لقد أقبل كبار القوم عليك ليتحدثوا إليك في بعض الشأن.

تصارح القوم كالمعتاد وأعلنوا بعيدًا عن اللُّبس والكتمان: إنها بئر أبينا اسماعيل وإن لنا فيها حقًا، فأشركنا معك !

-قلت لهم: البئر وماؤها ليست لي وحدي، وأنا كشفت طيّها بأمر هبط إليّ من السماء.

عبد المطلب نشط في الحفر، مقومًا ضربات المعول، وابنه الحارث من تلقاء نفسه، كان يفرغ المكتل ثم يعيده إلى الحفيرة.

الأيام بعنائها وطولها انتهت، والبركة على مكة قد حلّت، وهموم سقاية الحجيج سنويًا انقشعت، وتلك الرؤى المتكررة الصادقة قد تحققت.. صفاء وحياة وماء.

-الله أكبر !

ارتفع صوت عبد المطلب بالتكبير حتى امتلأ المسجد، وبلغ أقصى الحرم، وتعالى إلى عنان السماء.

فحطّ على الأرض ما بيده من الأثقال، وهرع القوم سراعًا الى المنحر، يسبقهم الحارث.

-ها هي زمزم !

-وأخيرًا احتفر ابن هاشم زمزم!

همّ عبد المطلب بحفر باطن الأرض، ماضيًا في رجزه، وقد هدّه الإرهاق، وضعضع منه الأركان. ألحّت الحرارة على الأرض، فقهرت عبد المطلب، وغمّست سرباله بالعرق.توقفت يدا عبد المطلب عن الحركة، إذ التقطت عيناه شواظًا أوراه نصل المعول، وهو يصطدم بشيء نحاسي.

–ماذا عساه أن يكون !؛ ابني الحارث أدل الزنبيل !

أدلى الحارث المكتل فعبّ فيه عبد المطلب التراب، ثم أطلق سبيله نحو الفوهة. والآن قد حصحص له الأمر لاحت للعين، درع عتيقة فولاذية، مع عدد من مسامير عفتها الليالي والأيام...

–يا حارث، أرسل الزنبيل! حسناً، يا أبتِ! درع، ست أسياف قلعية من فولاذ الشام، وغزال ذهبي، وآخر مثله. ها هم القوم يجتمعون حول الحفيرة ويلمون بها محتشدين.

بطرفة عين، ذاع الخبر في مكة، فتقاطر إلى الحرم وموضع الحفرة، أشراف البطون من قريش، ومن لفّ لفّهم من رجال المدينة؛ مما اضطر عبد المطلب أن يصرخ بأعلى صوته بين الحشد، علّ الحارث يسمعه.

أخذت الأيدي تتخاطف السيوف الحديدية، والغزلان الذهبية الثقيلة، حتى أوشك أن يستفحل النزاع بينهم

–قال هشام بن المغيرة بحَنَق جاهدَ في كظمه: يا بن هاشم، سبق لك منّا العهد على أن تكون زمزم خالصة لك من دوننا، وألا نشركك فيها وها نحن الآن نعاودك العهد، إلا أن الكنز هذا شيء آخر. عليك أن تقسّمه بين بطون قريش العشر.

أثار كلام حرب حفيظة القوم فهاجوا وماجوا، واحتدمت بينهم الخصومة، فهمّ عبد المطلب أن يسكت سخط من صنّ أذنيه عمّا لم يرقه من الحديث، فصار بينهم هو المعزول عن صم السمع، والممتنع عن الكلام.

كلا، لم يكن عبد المطلب ممن يبتغي عرض الدنيا وزبرجها، ولم يك عاكفًا على حطامها وزينتها، وإنما رفض الخنوع؛ لأنه كان يأبى الظلم والزور، فهو طيلة حياته قد ربأ بنفسه عن ذرة ضيم تركبه العار والهوان. اشتدت به قسوة الوحشة والغربة، وتصدّع قلبه حزنًا وأسفًا؛ فهو يدري أن القوم لم يتجاسروا عليه بل لم يتصدوا له إلا لقلة العدد والناصر والمعين.

يا ليته كان يملك من الذكور عشرًا. يا ليته، فلو كان يملك!

كان عبد المطلب سيّد قريش، ومدّبر أمرها فلا تستطيع المدينة دونه حيلة.

–والآن، ماذا ترى يا عبد المطلب؟

–يا هشام، أتيتك بفصل من القول. وبما أنني عقدت العزم على الحفر، ولا أريد أن يتقطع الأمر

بينكم، فإنني أقترح ضرب القداح[1]

-ضرب القداح!؟

-الحق أن نجعل للكعبة النصيب الأوفى من الكنز، ونضرب القداح بينها وبيننا.

ضُرِب القداح على الأسياف والدروع، فخرج لي، ثم ضرب على الغزلان الذهبية فخرج للكعبة. أمّا حصتي من الأسياف والدروع فقدمتها هبة للكعبة .

وقلت للقوم: ينبغي أن يكون للكعبة باب يتناسب وشأنها، فلندفع الدروع لمن يشتريها، ونصنع بثمنها وذهب الغزالين بابًا لائقًا بها.

"يقال إن عبد المطلب كان أول من حلى باب الكعبة بالذهب، ولم يسبقه إلى ذلك أحد".

"في اليوم التالي، عاودت الحفر، ولازمني حزن قاتم، وطغت عليّ كآبة عنيفة. فقست الغموم على قلبي، وضيّقت الخناق على حلقي"، جثم عبد المطلب على النقع، ثم مدّ يديه نحو السماء، اللهم أنت الشاهد على شيبة، أنت العالم بجوارحه؛ فإنها لم تقوَ الا على خدمتك.

يا رب الكعبة، أنظر إلى عبدك نظرة رحيمة، لك عليّ لئن ولد لي عشرة من الذكور ثم بلغوا أشدهم لأنحرن لك أفضلهم.

2

"الكعبة -كما هي اليوم -كانت مستطيلة الشكل، مكسوةً بمخمل أسود يماني. جدرانها من الحجر، وعرشها من الطين والخشب.

خلعنا النعل، وتركناه عند السلم الخشبي، ثم ارتقى بنا الدرج إلى مصراعي الباب. وفي جوف البيت، هبطت بنا بعض السلالم على قاعدة الكعبة.

-دخلنا الكعبة جميعًا، فالتفت إلي أبي قائلًا: يا حارث، أوصد الباب وقف وراءه، ولا تسمح لأحد بالدخول حتى يتم الاقتراع. أطعت الأمر، فوقفت فوق السلم الحجري مسندًا إلى الباب ظهري، ثم أوعز أبي إلى صاحب القداح في التهيؤ والاستعداد."

مع أن صاحب القداح كان أدرى بالأمر، لكنه سأل حسب العادة، بين من وما سيضرب القداح؟

-رد عليه عبد المطلب قائلاً: بين أولادي العشرة؛ ليتبيّن من هو ضحية الوفاء بالعهد .

---

[1] القداح:بمعنى القرعة

-قدم عبد المطلب إلى صاحب القداح صرة، قد غصت بالمسكوكات قائلًا: هذي مئة درهم، ولك أيضًا من الأجر جزور به الغلام بعد رعي الأغنام.

فرغ صاحب القداح من الإجالة، فرد الغطاء إلى الوعاء. فانبرى عبد المطلب يتضرع، رافعًا يديه إلى السماء. أخذ يبتهل إلى الله بصوتٍ غير خافت على الأولاد، قائلاً: اللهم يا مالك يا حميد، أنت إلهي، وأنت البارئ والمعيد، تقبض وتبسط، لك كل قديم وجديد. اللهم أرنا مشيئتك في هذه الأقداح!

انحبست في الصدور الأنفاس، وضاق على عبد المطلب الخناق، تحت وطأة الهواء الخانق، المثقل بدخان الشموع والمشاعل ..

-يا عبد المطلب، على عبد الله وقع اختيار الآلهة.

-تمتم عبد المطلب بصوت خافت هذا ما كنت أتوقعه!

أحسّ عبد المطلب أنه انهدَّ وخرَّ في الفضاء. "قد حقّق رب الكعبة مُنيتي، فوهبني على بعيد الانتظار تسعة أولاد، وها قد حان حين الوفاء بالعهد:

انطلق صوب الباب؛ لم يكن هناك داع للبقاء جوف الكعبة..

من فرجة الباب برز عبد المطلب، يتبعه الحارث والأبناء، واضعين على الدرج الخشبي الأقدام.

فسحت لهم الجموع الطريق، فوطأ سيد قريش وبنوه رمال الحرم في سكوت مطبق.

اتجه عبد المطلب، ومن بعده الأولاد حتى بلغوا المذبح الملوث بالعلق، فتوقف عبد المطلب، فتحلقت حوله الحشود، استدعى ابنه عبد الله. ما إن ناداه، حتى تصعدت الآهات من القوم رجالاً ونساء:

هو في ريعان الشباب، عبد الله خيرة أولاد عبد المطلب.

-صرخ شيخ هرم: علينا ألّا نسلمه للفداء.

-وثبت فاطمة صوب عبد الله وصرخت قائلة: "لن أسمح لك بذلك، سأمنعه بحياتي"...

المغيرة بن عبد الله المخزمي من أخوال عبد الله كان بينهم.

-تداركت الفتنة، فصرختُ بصوتٍ عريض إمتد الى صماخ الجميع ملتفتًا إلى أبنائي: لا تأذنوا لأحد بالاقتراب حتى يتم الفداء !

احتضن عبد الله أخوته، مودعًا إياهم، واحدًا واحدًا، وقد اغرورقت عيون عشرتهم بالدموع الا أنهم سرعان ما حبسوها قبل أن تأخذ طريقها إلى الانهمار؛ إذ لاحوا في وجه أبيهم بوادر الهيبة والثبات.

نادى عبد المطلب ابنه بصوت جهوري، ففضّ عبد الله على عجل الوداع، ومضى نحوه في قلق، وهو يسعى أن يأتمر أمره مؤثرًا طاعته على رغبته في الحياة والبقاء. فما يدريك لعل التاريخ يعيد نفسه فيفتدى في أقصى

اللحظات كما افتدى إسماعيل في سالف القرون والسنوات؟ لم يبالِ عبد المطلب بما كان يدور ويجري، فأشار إلى عبد الله بالبنان ليجثم عند المذبح.

تحت أشعة الشمس، تموّجت شفرته العريضة، ثم انعكس بريقها في أحداق عبد الله.

نظر عبد المطلب خلسة، ثم شخص برأسه نحو السماء، مناجيًا يا رب الكعبة، ها أنا ودرّتي العصماء، قرة عيني عبد الله. لقد استجبت دعائي وقد حان وفائي.

وقبل أن تتضعضع عزيمته، بسط يسراه بسرعة إلى ذقن ابنه ولحيته الخفيفة وجرّ برأسه إلى الوراء.

لم يكد يدني الشفرة من منحره، حتى انبسطت إليه يد قوية، فقبضت على رسغه ودفعته عن عنقه. أدار عبد المطلب رأسه، فوقع بصره على المغيرة بن عبد الله المخزمي.

–قال المغيرة في خشونة ولين: لقد جرت عادة العرب منذ قديم الأزمان أن تفدي الضحية بالمال وفاء بالعهد. فلم لا تجري عليها؟ رد عبد المطلب كارهًا غير مقتنع: أنا لست ممن يتبع الهوى، فينقض ما عاهد عليه الآلهة.

قام من بين القوم شيخ عجوز فان، يصيح : يا لبدعة شؤم تحدثها بين العرب يا بن هاشم! الولد سعة في الرزق، بتوافر الرجال ومنعتهم، تتباهى قريش وتتبجح، فلئن فعلت فإن الرجل لا يزال يأتي بابنه حتى يذبحه.

قال عكرمة بن عامر من سادة قريش لقد كنت مرجوًا فينا من قبل، أرى أن ميثاقك مع الآلهة لا تقبل عدلاً ولا تقنع بفدية؟

–قال خال عبد الله: أجل يا عبد المطلب قسمًا برب الكعبة الذي انت آمنت به هذا الكلام معقول وموزون فإن كان فداؤه بمال يدفع للكعبة، فإننا جميعًا نفديه بالمال.

تلكأ عبد المطلب وقال في تردد ولكن. لم يهمله المغيرة وعاجله في القول لا تتردد دعنا. وهل ضربت موعدًا للوفاء بالعهد..

أعرض عن هذا يا عبد المطلب بضع أيام، عسى أن يحدث بعد ذلك في الأمر شيء.

–فقام رجل يصرخ، فلنحتكم الى الكهان.

–وقال آخر: سجاح، عرّافة يثرب خير من ينهض بالأمر.

أمسك عبد المطلب عن الكلام فما له سبيل إلى الرفض..

فهلّ القوم مستبشرين. وتخاصر الشباب مغنّين.. والنساء يزغردن والأطفال يسرحون ويمرحون في حبور وسرور..

عدنا بالأمس من يثرب بعد أن ذهبنا إليها مع نفر من القوم نحتكم إلى عرّافتها في فداء عبد الله .

طالت الرحلة نحو عشرين ليلة، عرّجت خلالها على ديار الأخوال في بادئ الأمر .

"خرجنا حتى قدمنا مكة، فلما أجمعنا على الأمر، ضربنا القداح حتى بلغت الإبل مئة، فخرج عليها. ساورني الشك، فأمرت بمعاودة الضرب للمرة الثالثة، فلما خرج عليه، باشرني اليقين أن رضا رب الكعبة قد انتهى. وفي اليوم الآتي سقت إلى المنحر من الإبل مئة، فنحرتها عنه."

-"فلنذهب يا ولدي" قالها عبد المطلب، وهو يشد على يد فتاه برضا وحرارة وحنان. بادله عبد الله الشد، فربط على يد أبيه مستسلمًا في حب ووداد، وانصرف معه صابر التفت عبد المطلب إلى ابنه، وهما يخفان من الحرم بغبطة وبهجة، ألا ترى ذلك!؟، فقال في هزل وجد: لقد كلفتنا غالي. بدت على عبد الله بوادر الأسف والندم، فقال: يعز علي أبتاه شقاؤك من أجلي، لقد غاليت في الفداء، وطبت نفسًا عن عريض المال؛ فمئة من الإبل حصيلة أتعاب خمسين عامًا!

جدّ عبد المطلب هذه المرة وقال: بجلالة الذي نفسُ أبيك بقبضته، لئن كان القدح يخرج على كل ما أملك، لكنت أبذله على الرحب والسعة في سبيلك.

فبادر إلى ابنه بالقول: ولدي الماضي مضى، وأبوك الآن لا يكنّ إلا البشاشة والسرور، ولا يستشعر إلا الحمد والثناء. فلا تفكر إلا بقادم الأيام وحلاوتها فكر في آمنة وزواجك منها... فقد سبق أن بعثت ساعي الخير إلى وهب. وهو الآن وزوجه في انتظارنا.سيجهز أختك بعد النحر لوليمة العرس شعب هاشم.

اندفع الدم في صفحته الطرية، فربّت عبد المطلب على كاهله، فارتسمت على وجه عبد الله ابتسامة عذبة عريضة .

3

-أقنعني عبد الله وأفحمني إذ قال: يراودني الأمل، ويهفو بي الشوق لأنال جوارك ساعة الولادة، وهذا لا يتحقق لو التحقت بركب الشتاء. ثم أمرني بالصبر والسكينة وأوصاني برباطة الجأش والدعاء منذ سويعات انثالت المدينة إلا بعضها نحو الخارج، تترقب العير تحت وطأة الشمس الشرسة .

اضطربت مكة هائجة.. مائجة بعد أن حمل إليها ذاك الفارس المرهق الأشعث بشائر القدوم، فأعدت النساء الدور بكل جَلبة وسرور، ثم استيقظن والفجر مسرعات.. راكبات أو راجلات، فتوجهن في لهفة يحملن بين أيديهن الصغار، إلى لقاء الأخوة والأزواج،

في طليعة السراة، كان عبد المطلب في انتظار مع ابنيه «الحارث وعبد مناف» ومن ورائهم فاطمة وآمنة..

تعالت الهتافات بغتة من الفتية المترصدين بالمشارف: ها هو العير قد وصل.. وصل !

القوم اضطرب، الجالس منهم قفز. الواقف مدّ العنق ليجتلي المشهد .آمنة وعبد المطلب أخذ القلب منهما يخفق في الصدر ثم يخفق .

ثم هناك من بعيد، تناهى إلى المسامع جلبة القافلة، ونواح الجلجلة الحزين الحنين. احتشد المستقبلون حول القافلة؛ عبد المناف طاف بفرسه حول القافلة مرات ومرات، وجاس الركب، دون أن يجد لأخيه عينًا أو أثرًا، فرجع إلينا ليعلن على والده أن لا أثر لعبد الله .

متأكد؟ سأله عبد المطلب، وهو على يقين أن لا محل للسؤال؛ فهل يمكن أن يكون عبد الله بين الركب ويتكلّف الأناة ولا يندفع إلى أهله.

تدارك هشام – وهو من غلمان عبد المطلب في ركب الشام يوعز عبد المطلب بأمر جديد، الموقف، فألقى علينا التحية، ثم قال: سيدي مولاي عبد الله تخلف عن الركب ولبث في يثرب عند أخواله .

عاجله عبد المطلب بالسؤال: كيف، لم يرجع؟

لدى العودة ظهرت على صفحته علل فتّت في عضده، ورفعت من حماه ونحن على مشارف يثرب؛ فاضطر إلى البقاء ذهبت به إلى طبيب يهودي بالمدينة فوصف لمولاي الدواء، وأمره بالخلود إلى الراحة. فلا بأس عليه الآن، هو عند بني قيله في ديار أخواله. أمرني أن أخبرك وزوجه أنه سيعود إلى مكة ريثما يسترد الصحة والعافية .

–ومتى كان ذلك؟

–قبل عشر ليالٍ يا سيدي. ظهرت على الوجوه أمارات الجزع والذهول، واشتدت بآمنة وعبد المطلب اللوعة والاضطراب.

هـدأت من روعي، وطمأنت نفسي أن سيعود عبد الله موفورًا سالمًا، فلنكن شاكرين؛ إذ المرض قد داهمه داخل يثرب، لا في طريق العودة.

"بعد أن ندبني والدي، سرت إلى يثرب بالمرقال، فاختزلت الطريق ليال ثلاث، ثم وصلتها بعد خمس، عرّجت هناك على حي بني قيله وقلعة بني النجار؟ وافتقدت عبد الله عند أكبر أخوال والدي، فلم أجد له أثرًا. لم يكن في داره سوى زوجه العجوز، دعتني إلى مخدعها لاستريح، جلست عندها والقلق يساورني والحيرة تداهمني.

–قامت العجوز وهي تتوكأ على إحداها: أقعد يا ولدي لآتي إليك بشراب.

–شكرًا يا زوجة الخال، ما بي عطش.

-أجال الحارث ببصره في الغرفة، فسأل: ما لي لا أرى عبد الله، يبدو أنه غادر الدار بعد أن صاحبته السلامة والعافية! أجهشت العجوز فجأة بالعويل والبكاء.

-فوثب الحارث من مكانه يصيح: ماذا حلّ بعبد الله؟

-انهارت العجوز، وهي تصرخ: مات عبد الله، يا ولدي، مات.

-ماذا تقولين!

-أجل، يا ولدي، قبل يومين، استدعينا له الطبيب اليهودي، لكن دون جدوى، دون فائدة.

-يا لطول الشوق المضطرم، ولهفة العيون إليه!

4

"بينما أنا نائم في الحجر، رأيت في المنام أن شجرة قد نبتت مني، فنال رأسها السماء، وضربت بأعناقها المشارق والمغارب، ورأيت نورًا منها يزهر خرّ له العرب والعجم سجّدا، ثم رأيت رهطًا من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها، منعهم شاب وسيم وقور. لما رفعت يدي لأتناول ثمرة منها، صاح بي الشاب: مهلًا، ليس لك منها نصيب، فقلت: لمن النصيب، والشجرة مني!؟

قال: النصيب لهؤلاء الذين قد تعلقوا بها. فانتبهت مذعورًا خرجت، فرآني كاهن، وأنا فزع، متغير اللون، فسألني، متعجبًا: ما شأن سيّد العرب، متغيّر اللون؟ قصصت عليه رؤياي، فتغيّر لونه وامتقع ثم قال: لئن صدقت ليخرجنّ من صلبك ولد يملك الشرق والغرب، وينبّأ في الناس فيدخلون في دينه.

تسرّى عني الغم، ثم تصوّرت أنه سيكون من نسل ولدي أبي طالب."

"رأيت ليلة في المنام أنني وضعته، فإذا مخاضي الخفيف يثير فيمن حولي من النساء الدهش والعجب، فأخذن يتساءلن: كيف لا يتملك آمنة الطلق والوجع مثلما يتملك الأخريات !؟ عندها استيقظت .. وفي ليلة ثانية، كأن آتيًا أتاني، وهتف بي: "قد حملت بخير الأنام، فإذا وضعته، فسميه محمدًا، ثم عليك بالكتمان !"

فزعت من النوم، ولما يتخل عني الهاتف.

"لم تشعر سيدتي بالحمل، ولم يصبها ما يصيب النساء من الثقل وأوجاع الظهر، وضيق النفس والوحام. بين ليلة وضحاها تغيّرت، وانطوت أشجانها التي لم تكد تفارقها بعد أن فقدت زوجها."

"في منتصف ربيع الأول كنت في الغرفة وحيدة. الغرفة كانت في الزاوية القصوى على اليسار من الفناء، وأنا

داخل الدار. فجأني المخاض، ساورني قلق ورعب شديد، فإذا طائر أبيض يدخل عليّ وينشر جناحه حولي، ويمسح به فؤادي؛ فذهب عني الروع. وبينما كنت كذلك، دخل عليّ نسوة ثلاث كالنخل طوال، كأن الشمس تطلع من وجوههن. يفوح منهن رائحة المسك والعنبر، عليهن لباس فاخرة، ليس لها مثيل.في تلك الحالة الغريبة بين النوم واليقظة تبدّى لي أنهن حوريات، بل تمثلن لي مريم بنت عمران، أو آسية زوج فرعون، أو هاجر..

قال لي حسّان بن ثابت: لما كنت غلامًا يافعا، ابن سبع سنين رأيت ليلة في يثرب يهوديًا، يرتقي شرفة ويصيح بأعلى صوته: هبّوا يا يهود فقد بزغ نجم أحمد.

كنت طويل السرى في الصحراء، وفي ليلة ميلاده خرجت من الطائف في حاجة، فرأيت النجوم تتألق في قوة، لم أرَ لها مثيلًا. كأن السماء دنت من الأرض، بل أطبقت عليها. وكأن الكون كله قد تلحف بحرير من نور سماوي. وهمسات غريبة ملأت الكون والفضاء، بما فيه من الصخر والحجر، الشوك.. إبان ميلاده، كنت في تجارة ببلاد فارس، فسمعت أن إيوان كسرى ارتج، وسقطت منه أربع عشرة شرفة، وتناقلت الأنباء أن قد خمدت نيران المجوسية بعد ألف عام. هال ذلك كسرى، من فوره رسولا إلى اليمن ليستعبر كهنتها العرب الرؤيا .

ولد محمد عند الفجر، فأمرتني مولاتي بقولها: يا بركة، إذهبي إلى عبد المطلب وبشّريه. وجدت سيدي في الحرم يطوف الكعبة، فلما بشّرته، أكرمني بمسكوكة ذهبية، ثم انطلق إلى دار مولاتي يسعى .

رفع الطفل من المهد بشوق ولهفة يشمه، واحتضنه ثم أخذ له، ذارفا عليه العبرة، وهو يقول: حمدا لك يا رب الكعبة؛ فقد وهبت ابني عبد الله من يرثه. رب ما ألطف هذا الطفل وما أحببه!

ثم أوعز إلى مولاتي أن سميه قثما.

ردّت عليه مولاتي بتوّدد كي لا تثير حفيظته: لقد أتاني آتٍ وهتف بي أن سميه محمدا.

مضت سبع ليالٍ على وضعه، فأولم عبد المطلب – على عادة العرب – وليمة عظيمة، نحر خلالها الإبل، وذبح الأغنام، ودعا إلى المأدبة.

ها قد آن الأوان، بعد سبعة أيام، ليعرض الطفل على الناس ويعلن عن اسمه .

قام شيخ سائلا: ماذا سميته يا عبد المطلب؟

– محمد .

كيف سميته محمدًا، ولم يكن له من قبل سميًا!؟ همّ عبد المطلب ليفشي السر ويقص رؤيا كنته، آمنة، لكن

سرعان ما تراجع، فقد كان عليه الكتمان. ففكر هنيهة ثم قال سميته محمدًا ليحمد الله في السماء، ويحمد خلقه في الأرض.

5

قد شغف محمد بجده حبا فكان يرافقه كلما راح إلى الحرم، لكن عليه الآن أن يفارقه؛ فعبد المطلب يريد أن يخرج مع سراة قريش إلى سيف بن ذي يزن، في وفد التهنئة، بعد أن ظفر على الحبشة ودحر جندهم عن بلاده. وسيف بن ذي يزن هذا، سليل ملوك اليمن، استنجد بكسرى على الأحباش، فاستعاد الملك والسلطان .

كان محمد شديد التعلّق بي أيضًا، سألني ذات مرة: أماه، أين قبر والدي؟ أجبته: في دار النابغة بيثرب .

قال: ألا تحمليني إليه!

أنا أيضًا كنت أهفو إلى لقاء عبد الله. فلما رأيت ذلك من محمد، عزمت على الرحلة إلى يثرب بولدي وبركة، علّ محمدًا يتعرف إلى أخواله والصبيان وأركن أنا إلى مثوى زوجي الشاب. انتظرنا ريثما تنطلق قافلة إلى يثرب لننضم إليها .

لم تلُح لنا سواد يثرب إلا في فجر اليوم العاشر قد زارت مولاتي يثرب مرة أو مرتين؛ فلها في هذه المدينة من تمتُّ إليه بصلة القربى، بيد أن محمدًا لم يزرها من قبل.

الجو ربيعي، والحرارة لما تشتد. إلا أن غمامة –والأمر عجيب– كانت تظللُ محمدًا طوال الطريق، حيث لا ظلة ولا ظلال!

ما إن استمرت أدراج الركب، حتى أحست الإبل أيضا – بفراستها – أن الرحلة الشاقة قد شارفت على الانتهاء وأن وقت الخلود إلى الراحة قد حان وآن، فهدرت مرحة، وباعدت الخطى، ثم لاحت بين النخيل مدرها وعواليها المقببة وتناهى إلى الأسماع صياح الديكة. لم يكد يصل الركب يثرب حتى تأثر بالأجواء الجديدة وخصال أهلها، فلانت منهم أيضًا الخلق ورقت الطباع . وصلنا مع القافلة قلعة بني النجار بحي بني قيلة .

لما تم اللقاء بأهل المدينة، منحنا الجسم قسطًا من الراحة، بعد أن استودعناه ليزيح عنه ما لزق به من الهباء والغبار. ثم اتجهنا إلى دار النابغة، تلك المقبرة القريبة من القلعة.على شفا البلدة، تحت ظلال مزرعة ونخيلات، لازمت دار النابغة مكانها، كئيبة لتحتضن مثوى عبد الله الغريب، الوحيد بين أعلافها البرية.

في تلك الساعة من النهار، كان بعض منهمكًا بالعمل في المزرعة والبستان، وآخر قد خرج إلى السوق؛ فخيّم على المكان صمت رهيب لا يخترقه إلا زقزقة العصافير . لم تأذن آمنة لأحد بمرافقتها إلا ابن خال محمد، صبي في مقتبل العمر خرج معها ليدلها على الطريق. الوحشة كانت غريبة، والسكوت قاتمًا، وآمنة بدأت تشعر أن الزمن قد توقف عن الحركة والاضطراب. نم يا عبد الله، نم آمنًا من كل هم وغم .. لقد سرّت عنك المحنة فقرّ بالك وطاب .نم، هادئ البال، فما من أحد تراوده نفسه فداءك، يا للموت من مجل ومذل.

ها هي آمنة تتذكر عند قبره، كيف كاد قلبها يتوقف عن الخفقان ويتجمد في عروقها الدم، كلما خطر ببالها هواجس فراقه. مولاتي، لو تأذني لمحمد وابن خاله بالعودة إلى القلعة! هذا ما قالته بركة الشفيقة، الحنون، بينما كانت تذرف الدموع وتضع يدها على كاهل آمنة. أدنت بركة رأسها إلى أذنها لتهمس فيه قولاً أرادت أن تخفيه على محمد... عذرًا يا سيدتي: عذرًا من الأفضل ألاّ يراك محمد على هذه الحال !

ردّت عليها آمنة في لوعة وكآبة: فليرجعا، معك الحق يا بركة؛ فقلبه الصغير قد لا يتحمل ما يتضاعف عليه من الأحزان .اشتدت وطأة الصمت على المكان بعد أن ذهب الطفلان .يا لوداعة يثرب، يا للسكون والهدوء! لشدّ ما كان يعصر مزاره الشاحط قلب آمنة، فتزداد وحشة واغترابا.

لبثنا في يثرب ثلاثين ليلة، كانت مولاتي خلالها تنقطع إلى عبد الله، وتنفرد في دار النابغة بمثواه، ناحبة، ضارعة؛ فتثير العجب العجاب في نفس من لا عهد له بسيدتي وما يربطها بزوجها من إثر أواصر الود والوئام؛ ونواحها المرّ ستة أعوام من رحيله !

إلا أنني كنت أتوجس خيفة من أن يتحسس محمد الأمر، فتشتد به الأشجان.

غمرت محمدًا الفرحةُ لما أحسن في يثرب العوم، إذ لم تكد مكة تملك من برك الماء؛ ليتمرس فيها الصبيان السباحة حتى الإتقان.يا لطيب المقام في رحاب يثرب الحنون الخضراء.. ها هو محمد صار ينعم في الجنة، حيث ينبعث شذا النخيل، وأريجه الفواح.

لا مناص من العودة فسيدتي قد اجترحها الوهن والهزال، وعليّ أن انزح بها عن يثرب ومثوى زوجها؛ عل الأتراح عنها تنجلي والأحزان، فقلت لها: مولاتي لا بد أن سيدي عبد المطلب قد آب من اليمن: فعلينا ألاّ نتأخر في الرجوع، وإلا سينتابه القلق ويتملكه الاضطراب. أيدتني مولاتي، فهممنا على شد الرحال، وأعددنا الزاد، وانطلقنا من غد يومنا مع الفجر كان الجو في يثرب صيفًا، إلا أن الحرارة لم تكن كاوية.

مضت القافلة في طريق الجنوب، بينما كان يترنح في مؤخرة طابورها الطويل، بعير آمنة الفاقع، بهودجه الخشبي. وعلى ظهر المركب، استكان محمد في حجر أمه، وظلّت بركة تسايرهما على متن

ناقتها الفاحمة .

أغمضت آمنة العينين، واستندت إلى نمرقة جلد صغيرة، وضمت محمدًا إلى صدرها، ثم أسلمت، ما لبثت أن أفاقت آمنة على هدير الجمال، مما كانت تتملاه من الذكريات.

–سيدتي، سينيخ الركب هنا، ليأخذ قسطه من الراحة ويرفه عن الجسم بعض الشيء، أيدتها آمنة بإيماءة لطيفة. ثم مالتا بهامات الجمال يسارا، بين النخيل.

فلما بركت الناقة على الأرض، وانتبذتا من القفل مكانا قصيا، استيقظ محمد على صرير هودجها، وخرج من المحمل .

جففت آمنة بمنديلها الحريري الناصع ما على جبين طفلها العرق الناضح كقطرات الندى، ثمر محمد سرباله المخطط عن الساق، وانطلق إثر أمه، وهو في نشوة النعاس. وقفا على ضفاف نهر قاحل جاف، فغسل محمد الوجه تصب عليه أمه من القربة، ثم التحقت بهما بركة، واليدين بما كانت بعد أن فرغت من عملها. تداولت آمنة الشابة والفتاة صب الماء، ثم ساقت بركة النياق إلى حيث البئر؛ لتسقيها .

جاءت بركة ببساط صوف أبيض، ففرشته آمنة تحت ظل نخلة، ثم أخرجت خوانًا وقديرًا نحاسيًا من عدل بعير بركة.

أما محمد فقد كان منهمكًا في البحث عن شيء ما بين الأعشاب النابتة خلال النخيل .

أخرجت آمنة من القدير قليلاً من الحلواء، ولفته بقطعة من الخبز المرقق، وقدمته إلى محمد، ثم التقطت لنفسها بعضًا، وأعطت القدير إلى بركة .

انصرف محمد وبركة إلى الأكل، ولكنها لم تتمكن من تناول طعامها، فاكتفت بلقيمات. ألقت بركة على سحنة آمنة الممتقعة، نظرة خوف ووجل، وبادرتها بالسؤال :

–سيدتي، كأنك لست على ما يرام؟.

– لا، بل لا أشتهي الطعام، ربما بسبب الحر .

مالت الشمس إلى أقصى السهل لتتخذ فيه مستقرًا ومقامًا، بينما أمعنت القافلة في السير نحو مكة، وحثت الخطى لتبلغ مأمنها، قبل أن يجن عليها الليل .

سأل محمد بركة، وهو إلى جانبها في الرحل: ومتى الوصول إذن يا حاضنة!

–أجابته بلطف: نحن لم نقطع من الطريق إلا ليلتين، وإذا سرنا على هذا المنوال، فسنبلغ مكة بعد ليال ثمان .

–سأل محمد وهو يتثاءب: وهل سيعود جدي من اليمن حتى ذاك الحين؟

– نعم وربما قد عاد.

– ومتى يرحل الناس عن هذه الدنيا، ويموتون، يا حاضنة؟

– إذا أصابهم الكبر، وطعنوا في السن.... ترى لم تسأل؟

– أمات والدي عن كبر سن؟

–ما هذا الذي تقوله، يا عزيزي الصغير!؟

–كان عجوزا؟

– لا بل شابًا مرض فمات إثر حمى؟

– نعم، على ما يبدو!

—وأمي، قد انتابتها حمى، ونحن على أعتاب الخروج من يثرب، فهل هي أيضا...!؟

غص محمد بالعبرة، ثم أمسك عن السؤال، فضمته بركة إلى صدرها بحنان، وقالت: مهلا، يا عزيزي الصغير مهلا، ومن قال إن كل من تعتريه الحمى يموت؟ ثم استطردت في الحديث عسى أن تصرف محمدًا عن أسئلته تلك، أتحب جدك كثيرًا؟ لم يرد محمد بجواب،

ليلة ثقيلة ليلاء.. لحظاتها طالت كأنها ساعات، والشمس بدت غارقة في جب المشارق، لا تزايله؛ بل تستعصي على الشروق، وتصر على البقاء. وها هي آمنة تنوبها الحمى نوبة بعد نوبة، فيلتهب عودها كالكور المضطرم، ثم يتصبب من مساماتها العرق مثل سواق صغيرة منهمرة .

اضطرت أن تلازم الفراش منهكة، خشية أن يستيقظ محمد وبركة، فأخذت تعضعض على الشفتين، وتنشج في صمت أبكم. تعتريها أحيانًا الرجفة، فيشملها عرق بارد، ثم تلح عليها رخوة غريبة وتقهرها، ويأخذها دوار الرأس وتقاذف المعدة كل مأخذ .

ها هي آمنة تتمنى الموت، بعد أن قاست الحمى حتى الفجر، على مدى ليال ثلاث طالما داهمها الخوف على مصير محمد ومستقبله، وعلقت في ذهنها أسئلة واخزة: ماذا سيحل به من بعدي، أين ينتهي به الدهر القاسي وفتنه؟ وهل يطيق يتيم في السادسة هذا اليتم المضاعف؟

تذكرت فجأة ما رأته إبان ولادة محمد من الرؤيا الغريبة وما لقي من الرعاية الخفية الغيبية، فأخذت تتمتم: "أعيذه بالواحد من شر كل حاسد".

انبثق الفلق، وتسللت أشعة الصباح الشاحبة إلى فرجة الباب إلى نفس آمنة سكينة غامضة، فصارت كمن يبصر الكائنات وشؤونهم من فوق العرش .

مع إطلالة النهار، خفت الحمى والأوجاع، وشعرت آمنة بالتحسن، فاستندت إلى الوسادة جاثية،

وظلت على تلك الحال .

ها هي قرية الأبواء الضئيلة استفاقت هي أيضًا من طيب المنام، فتعالى صوت الحياة من أكواخها المدرية، وأزقتها الضيقة الملتوية، سمعت آمنة من الزقاق المتاخم للكوخ جلبة سرب من العنز والجداء، ثم حطت في الباحة بضعة عصافير وراحت تزقزق عاليًا- كأنها تبح عن بلغة من الطعام ، فأثارت بركة بصداحها من المنام، واثبة مرتبكة، تدير بعينيها حول الفراش فوقع البصر منها على مولاتها؛ فخالجها بغتة مزيج من الشعور بالفرح والحياء .

-عذرًا - يا سيدتي عذرًا — فقد صرفني النوم عنك والإرهاق!

مهلا، يا بركة مهلا، فإنك في الآونة الأخيرة، تكلفت من التعب والعناء. لا عليك. هنيئا لك النوم والراحة في سبيلنا أنا وابني يا أنيس آمنة في أعوامها العجاف، يا صبور، يا شريكة أحزان يتيم عبد الله .

طاب يومك يا مولاتي، يا للسعادة! يبدو أنك أحسن حالا !

-وطاب يومك، أيضًا، يا بركة، نعم، أنا الآن أحسن ولكن .. ما إن وقع بصرها على محمد وهو يستيقظ من المنام، حتى أمسكت عن الكلام.

- أنعمت صباحًا يا ولدي، أمسيت مرتاحًا؟

رد محمد بابتسامة عذبة، ثم حملق في سحنتها . قرأت آمنة نظرة ابنها، فطمأنته بقولها: "لا تهن يا شريك أحزاني الصغير، ولا تحزن؛ فراعيك معك وإن غبتُ عنك". بعد أن تناولنا أنا ومحمد الفطور، تشبثت مولاتي بمحمد تعانقه تقبله، وقد أسالت من عينيها الدموع. حط محمد رأسه على صدرها، وهو يسحّ العبرات سحًا غزيرًا فضقت بالمشهد ذرعًا، فأجهشت بالنحيب والبكاء. أرسلت آمنة محمدًا إلى الفناء في حاجة ما، ثم أهابت بي أن أدنو منها.

أخذت يدي إلى يديها الملتهبتين، وطبعت على وجهي قبلةً، فانخرطت في العويل، وقبّلت منها اليدين الناعمتين كالورد. ثم بصوت طيب أوصتني بمحمد، أن أسلمه إلى جده وأن لا أخلي بينه وبين الوحدة ما وجدت إلى ذلك سبيلا.

قالت لي مولاتي: يا بركة، إنك تعلمين حقًا أن محمدًا في ربيعه السادس، ولم يذق حنان الأم إلّا قليلا - لا أخ له، ولا أخت، وليس له من بعدي مسل عن الوحدة، إنه يأنس بك أنسًا خاصًا، عسى أن يسلي ذلك همّه، ويريح شجوه.

تدهورت حال مولاتي خلال اليومين بشدة، فأخذ منا الخوف أنا ومحمد كل مأخذ فجرعتها ما كان بين أيدينا، مما أعرفه، من الأعشاب، فلم ينجع فيها ثم توسلنا إلى شيوخ القرية وتشبثنا بهم. فجرعتها -

بلا طائل – ما وصفوه لنا من الدواء. ولما ألقت علي مولاتي كلامها ذاك، توجست منه خيفة، فانطلقت إلى شيخ علي مكين، ناحبة، أسأله العلاج، فأوصاني بالذهاب إلى كاهنة حكيمة في ربوة بعيدة عن الأبواء، عجوز جاءتها من مكة، ونصحني أن أخف بها إلى مولاتي؛ علّ في ذلك الشفاء.طلبت من محمد ألا يترك الدار، ووليت وجهي أنا نحو الكاهنة، ولما بلغت بيتها، أعلمتني أمتها أن قد مضت إلى معبدها في جبل الأبواء، ولن تعود إلا بعد ليال ثلاث.

رجعت إلى القرية متصدعة من الغم والأسى، فسمعت، وأنا بباب الغرفة، عويل محمد ونحيبه الجهير، هرولت إليه ساعية، فرأيته متضرعًا، واضعًا خده على خدها، وهو يندب بحرقة: أماه، ؟ ماذا دهاك؟ لم لا تردين علي؟ انهضي لنعود إلى مكة! أماه، من لي غيرك؟ كوني عونًا لي على الوحدة!

اصطرخت من الأعماق، وأسرعت إليها. كانت قد أسدلت الأهداب، وتمثلت لي بوجهها الهزيل، كفلقة القمر المشرق، ملاكا قد غط في سبات عميق.

أدنيت الأذن من صدرها، في ذعر ووجل: قلبها لم يعد يخفق. هممت أن أدك براحتي على هامتي، وأنثر الشعر وأشق الجيب، فانصرفت؛ إذ وقع بصري على سحنة محمد المرعوبة المهمومة، فخفت أن تزهق من عوده الضئيل الروح، ثم أهبت بنفسي زاجرة: صبرًا يا بركة، فها أنت والبقية الباقية من سيديك.. أدركي محمدا!

بذلت قصارى الجهد لأنحي محمدًا عن صدر أمه، فقلت له: يا حبيبي، هي لن ترجع عليك جواب ولما رأيت على وجهه غاشية من الوجوم، أضفت قائلة: جعلت فداك! هذي هي الموت.. الأم.. ماتت.!

ها هي الحياة تنتعش من جديد، الفجر يعاود الانبثاق، والشمس تستأنف الأنفاس، والعالم العجوز يستعيد يوما آخر من دهره الطويل .

القافلة الصغيرة في طريقها إلى مكة كانت تشق – في كآبة – قاحل الفيافي بهودجها الخالي.

كيف يصدقان غيابها، أعني غياب آمنة، كيف يصدقان أن صوتها الحلو الحنون، الشفيق الرقيق لن يعود يشنّف منهما الأسماع. خلال ما مر من الأيام، تمادى محمد في العويل والبكاء، فلم ينقطع عن النحيب، ولم يرقأ له دمع ولا عبرة، فتوجست عليه بركة خيفة وخشيت أن تزهق روحه المرهفة، فتفارق عوده الغض لتلتحق بأمه .

لم تكن تترك محمدًا وشأنه لحظة –كان عليها – إرضاء لروح مولاتها، أن تهوّن عليه الخطب وتعود به إلىّ جده موفورًا سالما –حبيبي، ألست ظمآنًا!

ألست مرهقًا؟ تعال لنتفيأ ظلال الصخور، ونرفه عن الجسم؛ فنستعيد الطاقة. ألم تكن تصر أنت على

الإسراع في العودة، فلنسترح الليلة !

قبل أن تلح الشمس على الأرض بلاسع وهجها، راحت غيمة تلوح في السماء رويدًا رويدًا لتمد على رأسيهما الظلال..

6

أفقت مع الفجر على جلبة الرفقة، وهم يستعدون للرحلة، فقمت معهم أعد العدة. وعند الفطور، أهاب بي غلام، فمضيت إليه، فأخبرني أن الأمير يدعوني فانطلق بي إليه. كان سيف قد انفرد بنفسه في غرفته المتواضعة، فلما دخلت عليه أكرمني، ودعاني إلى جواره، ثم قال: لقد صرفتني عنك زحمة الأعمال، ولم تسعني الخلوة بك، فإذا بلغني أنك على أعتاب الرجوع، استدعيتك لألقي إليك ما ينبغي قوله قبل فوات الأوان.

قلت: شكرًا يا أمير، وسمعًا لك وطاعة !

قال: فليكن هذا السر العظيم مطويًا حتى حينه!

قلت: هو ذاك.

قال: إني وجدت في الكتاب المكنون الذي اخترناه لأنفسنا عظيم خبر، واحتجب إلّا على بعض الكبار من الأحبار.. أن في الحجاز اليوم غلام بصباحة الوجه وجمال الخلق، بين كتفيه شامة كالخز الأدكن، مات أبواه أو قد يموتان، يكفله جده وعمه ويبعثه الله رسولا في مكة والجنوب من الحجاز، هو صاحب الشفاعة يوم القيامة، ويجعل له الله أنصارا منا يعز بهم أولياءه ويذل بهم أعداءه، يكسر الأوثان، ويخمد النيران، قوله فصل، وحكمه عدل، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر. سكت سيف هنيهة عن الحديث، ثم غاص في أفكاره، متأملاً، وخلى بينه وبين العبرة، فقال: يا ليت الأجل يمتد بسيف كي يكون له عونا وينصره بالغالي والرخيص. كنت أسميه وأدعو إليه، لولا خوفي عليه من الأعداء. أعثر عليه، يا ابن الأخت، واحرسه، واحذر عليه من اليهود، ألد الخصام.

ساورني على آمنة القلق، فالتفت إلى سيف، قائلاً: شكرا لك، – يا أمير – على ما أطلعتني من السر أظن ظنا أنه حفيدي محمد، ففيه العلامات، على أن أمه ما زالت على قيد الحياة.

قال سيف: طوبى لك، يا بن هاشم؛ ثم طوبى لك، ما أسعدك يا شريف! أشهد أنني به آمن، وبما أتى به من رب العالمين. ثم تنهد بحرقة وقال: يا ليتني أدركته ففديته بنفسي ومهجتي. فما زال يردد قوله حتى ضمني

إليه، ولثم وجهي، ثم أذن لي بالخروج.

إذا اردنا القفول، أمر لكل منا هدايا. لي ٩٠٠ مثقال من الذهب، و٩٠٠ مثقال فضة، وملء الكرش عنبر ولرفقتي مثل ما حملت.

فصل 7

دخلت هالة الغرفة، وعدلت متكأ عبد المطلب، ثم ثنت تحت ساعدي زوجها وسادته التي استند إليها، وقالت: آتيك بمغلي الأعشاب؟

رنا إليها وقال: لا جدوى من العلاج؛ فالسيل قد بلغ الزبى، البلية هذه المرة من صنف آخر. هي الشيخوخة، ولا ينجع فيها إلا..ما إن أراد أن يتفوه ب (الموت)، حتى أهابت به هالة أن محمدًا في الحجرة .

لقد كان عبد المطلب يعرف كم من المودة يكنّ له حفيده؛ فمنذ آب من يثرب يتيمًا لم يجد من دونه موئلًا يعتصم به. فكان يتيم به إليه ويدنيه. ولم يصبر بُعد عن الآخر يومًا فضاق كل بالفراق ذرعا. كان لا يأكل إلا بحضور محمد، فإذا حضر، قدم لجده الطعام، وسقاه الشراب. لكن يبدو أن الأيام كانت حبلى بالمفاجآت وصار القدر له بالمرصاد، وحاسته السادسة راحت تنذره بموت معجّل في قادم الأيام.

كلا، لا يهاب عبد المطلبِ الحمام؛ فقد عاش مليًا موفور النعمة، ولا يشوبه من الموت قلق ولا اضطراب؛ فالموت ليس هو الفناء كما يزعم بعض العربان. لم يأخذه بعمله الصالح الغرور، بل داخلته الطمأنينة، وغمرته السكينة؛ لأنه عايش العفة والطهر والنقاء. إلا أن همًا مقلقًا أخذ يداهمه: «ترى، ما مصير محمد من بعدي...؟ أيطيق نائبة من جديد، هذا اليتيم الرقيق، الدرة العصماء؟». لا مناص من القضاء، ولا اعتراض على القدر. هذا ما تبناه عبد المطلب في السر والعلن .

ترى هل يدرك قلبه ذلك.

آه، يا حفيدي الصغير، يا لحزنك المتواصل السحيق، تمالك عبد المطلب نفسه، فكاتم دمعة طفرت من عينيه على حين غفلة من محمد، فكفكفها بإبهامه، ثم وقع منه البصر على محمد، مقرفصًا لدى الباب، قد ألصق الفخذين ببطنه، مسندًا الذقن على الركبتين، وهو ينعم إليه النظر بعين عسلية، مشدوهة، طافحة بالغم. يا لذكاء هذا الغلام ويا لفطنته!، يصعب على عبد المطلب، أن يستر عليه سره بل

يستحيل.

هالة! أدارت إليه رأسها، وهي ترتب الحجرة قولي لأبي طالب، وبناتي يجتمعوا إليّ الليلة.

انطلقت لإنفاذ ما أمر، فالتفت عبد المطلب إلى محمد يسأله: كيف حالك يا بني؟ قال محمد والعبرة تخنقه: عاهدني يا جدي على الصحة والشفاء !

تظاهر عبد المطلب بالسلامة، وأنى له ذلك؟

-أتعرف يا ولدي أنني عشت مثلك يتيمًا.

زحف إليه محمد ليجلس إلى جواره، فقال، متلهفًا: لكنك لم تخبرني بذلك!

- أجل، يا ولدي، أنا أيضًا ولدت يتيمًا، ثم ماتت عني أمي، وأنا في عمرك .

-يا للعجب .. إذن، كنت مثلي؟

أنت مثلي، لا أنا مثلك !

انفرج ثغره الصغير عن بسمة خافتة؛

-أجل يا عزيزي الصغير، كانت طفولتي مثل طفولتك، أو كادت أنا أيضًا ألمت بوالدي وعكة، فمات، وهو في طريق التجارة إلى الشام، إلا أنك الآن بين العشيرة والديار، ثم أضاف، متأوّها: ثبت للقضاء – على أية حال – وأذعنت للقدر كما يذعن الرجال

– لم تحدثني أمي إلا عن ولادتك في يثرب!

ثم انطلق حمزة بمحمد لأمر من أبيه، فالتفت عبد المطلب إلى بناته وبنيه، فخاطبهم بقوله: دعوتكم في حنادس الليل، لتسمعوا آخر وصاياي .

أجهشت البنات بالبكاء، وعلا منهن النحيب، واستعبر زبير وانهمرت في مآقي أبي طالب العبرات، فراحوا يحملقون فيه بحرقة، تأخذ بالخناق .

-لقد أتاني اليقين فها هو نحبي سينقضي عما قريب، ولم يبق إلا حشاشة.

غص أبو طالب وصرخ: أبي.. أنت..

قاطعه عبد المطلب ليقول: إن الموت سبيل لا بد منه.

وقد حق علي الآن أن أوصيكم، فاستمعوا إلي.

فقال: يا بني، أنتم خيرة ولد إسماعيل وزبدة سلالته، ها أنا سيد قريش وسائقها ألقي عليكم وصيتي: إن الرئيس عليكم من بعدي الزبير، سلمت إليه مفاتيح الكعبة وسدانتها، ولواء نزار . وإلى أبي طالب سقاية الحاج وكفالة حفيدي محمد. خذوا عني ذلك، ولا تخالفوا قولي، ثم أوصيكم ثانية بمحمد، كونوا عند

إعزازه وإكرامه، فسترون منه أمرًا عاليًا عظيمًا.

أضاف أبو طالب: سمعنا وأطعنا غير أنك كسرت قلوبنا بوصيتك، وأزعجت أفئدتنا بقولك.

– يا أبا طالب، عليك بالغلام، احفظه واستمسك به؛ فإنه فريد وحيد. مسح عبد المطلب العبرات، وقال بصوت خفيض،: كفكفوا العبرات وهونوا على النفوس، فلا بد من هذا المصير، ارجعوا إلى الدور؛ فإن الأهل في انتظار. فلما هموا بالخروج، رأوا محمدًا يهرول ساعيًا نحو الغرفة، فاندس بين العمات والأعمام، وشق طريقه حتى جده، فعانقه وحط على صدره رأسه، وبكى شجوه، فعاودوا معه العويل.

8

آخر نجيمات الليل السابحة في سماء الصباح الباهتة أدركها الشحوب، واحدة تلو الواحدة. انسل محمد، بسرعة، وهو غارق في الأفكار؛ فقد استيقظ مع الفجر ولم ير عمه إلى جنبه في الفراش. تفقده في باحة الدار فذكرته زوج عمه أن إيلاف رحلة الشام الصغيرة، وأبو طالب قد انطلق ليلتحق بالركب، ثم أذنت له بالذهاب ليودّع عمه قبل الانطلاق.

كان زوجي أبو طالب مولعًا بمحمد أشد الولع، ففي مضي السنوات الأربع، لم يهنأ له بال ما لم يخرج معه محمد. ولأبي طالب محله الخاص في قلب محمد؛ فقد كان يشم منه رائحة جده، ويلمس فيه خصاله ويمثل له أبًا لم تكتحل عيناه برؤيته .كان يرى أباه وأمه وجده، فيهون عليه اليتم في السخي جنبه، وها هو أبو طالب قد عزم على مفارقته، والرحيل عنه إلى تجارة الشام.

لقد كان محمد – منذ أمد – على علم أن ملجأه الوحيد ومأواه الوثيق على وشك الرحيل إلى الشام، فاسودّت الدنيا في عينيه وأحس أن المدينة بمن فيها قد ران عليها متراكم الغبار، غبار الغربة غبار الوحشة ورنقت سحب الهم الصفيقة في سماء قلبه، وطالت عتمة قاتمة أفق حياته.خلف محمد وراءه مدخلاً من مداخل السوق، وشق طريقه في بعض الأزقة حتى بلغ مسفلة مكة، حيث منحدر السيول، ومجمع الأكواخ الصغيرة.

اعتلى محمد صخرةً، وأدار اللحظ يمنة ويسرة، وهو حسير فاندفع إلى طليعة الركب، وانتحى جانب على الطريق، علّه يرى أبا طالب إذا فصلت العير .

ما كان نصيب محمد من كل ذاك إلا حزن عنيف.. سحيق، وعبرات نضخت في مآقيه، لم يعد يملك لها دفعًا مع ما كان ينفق من الصبر الجميل .

وقع بصر محمد على عمّه بغتة، وهو يتقدم القافلة، أنا أيضًا كنت أضيق بفراقه ذرعًا؛ فهو كل ما تبقى لي أخي لكنني لم أرَ غير الرحلة من بدا، ولم أجد سواها مخرجًا من شظف العيش وضنك الحياة؛ فعزمت على الرحيل إلى الشام بما كان في يدي من الوفر القليل .

التقيت بابن أخي فور انطلاقنا. كان واقفًا على هامش الطريق منكفئًا محسورًا، حزين، فما أن رآني، حتى اندفع متشبثًا بعنان بعيري. يبكي من الصميم ويلح علي بالقول: خذني معك يا عم، خذني.

رثى لحاله أبو طالب ورقّ له قلبه، فنزل عن مركبه، والدمعة تترقرق في عينيه ليقول: يا حياتي إنني أيضًا لا أقوى على الصبر عنك ساعة واحدة، ثم انتحى به جانبا! ثم التفت من فوره إلى غلام في الركب يأمره: انطلق الآن بجواد إلى داري وبلّغ أم طالب أن محمدًا انضم إليّ في ركب الشام؛ فلتجمع ثيابه في صرة ثم ائتني بها.

التقط أبو طالب بسبابته الرقيقة دموع محمد، وهي تطفر من مؤقه، وجعله ردفه على البعير.. ما هي إلا لحظات حتى انقشعت عن سماء صدر محمد سحائب الغم والأسى خلف الركب وراءه جبال شمال مكة الجرداء زاغت مكة عن بصر محمد رويدًا رويدا وغابت بمعالمها إلا ما لاح في البعيد السحيق من جبال.

أمعن محمد النظر في المكان، فلم يستغربه، بل انكشف عن بصره الغطاء، فتمثلت أمام عينيه الأبواء، وآمنة الحنون، وراودته ذكرياته في السادسة من العمر.

هاجت في ذهن محمد خواطر تلك الأيام الغضة القصير التي قضاها مع أمه.

لم تكد تمر على الرحلة في وادي الشام بضع ليال، حتى لامس محمد الفوارق بين أهله والأعراب في السحنة والبنية والطباع. وإن لم يلتق إلا بفئة قليلة منهم فأدرك أنهم ليسوا على بساطة الحجاز وما كان عليه أهلها من الصدق والإخلاص، بيد أن الشوام كانوا أكثر ليونة، وأحلى عشرة وأقوى على الصبر والاحتمال .

اطلع أبو طالب على محمد من فوق الجمل، ثم قال، وهو ينوء بصدره: هنا في شرق الشام حاضرة كبيرة، فيها سوق رائجة. نظر محمد إلى عمه نظرة ملؤها الحمد والحب والثناء. بلغ الركب مشارف المدينة ولما يدخلها بعد؛ فلاح من البعيد سواد الجنان والعمائر المحيطة.

أوعز أبو طالب إلى العير بالوقوف؛ كان ذاك البناء المطل من الربوة صومعة، لم تبلغ من العمر عتيا؛ إذ لا تناهز الأربعين، شيدها عظيم الرهبان، بحيرى، ومنذ ذلك الحين، انشطر عن دنيا الناس، وآثر هو ونفر من أتباعه أن يقضوا العمر في النسك والعبادة.

انفتحت بوابة الصومعة فور استقرار العير، فبرز منها فتى ضامر الخصر. واتجه نحو البستان حيث مربع الأشراف من مكة، فرحب بالقوم ونفحهم بالتحايا، ثم سأل عن رئيس الركب وزعيمه، فدلوه على أبي طالب. انطلق إليه ليقول: أقرأ عليك تحية سيدنا بحيرى وتهانيه وأدعوك ومن يلازمك إلى مأدبة غداء في الصومعة، وذلك بعد أن ترفهوا عن الجسم شيئًا، وتمنحوه من الراحة قسطا.

تملك أبا طالب وصحبه الاستغراب، فقال أحدهم: إن هذا لشيء عجاب! الراهب الكبير – يا للسعادة – يلقي بالاً إلى المساكين! – منذ بعيد الآماد، نلقي رحلنا لليلة وضحاها في هذا المكان، لكنني لا أتذكر يومًا أن الراهب شملنا برعايته، وأعارنا اهتمامه! لم يحر الفتى الراهب جوابا فطأطأ رأسه، فتدارك أبو طالب الموقف الحرج؛ فغير مسار الحديث وصبه في مجراه الصحيح؛ إذ قال بصوت يسيل رقة ولينا: بكل فخر واعتزاز. للراهب بحيرى الشكر والثناء.

ساور الراهب رضى، وطاب نفسًا مما تفوه به أبو طالب برفق ولطف، فقال: أنا أيضًا في حيرة من أمر أستاذي، لكن لا بد له من هدف أو دليل؛ التفت أبو طالب إلى الفتى الراهب قائلاً: إقرأ على بحيرى تحايانا، وألقِ عليه منا السلام، وبلغه أن الأمر أمره، سنلبي الدعوة .

في قاعة كبيرة، مد سماط طويل متنوع الطعام.اتخذ كبار الركب مجلسهم حول المائدة، فقام بحيرى، يغدق عليهم عبارات الترحيب.

يا معشر قريش، كأنكم خلفتم وراءكم ظهريا؟ نعم، جئناك على بكرة أبينا إلا غلامًا صغيرًا تركناه عند متاعنا.

همس بحيرى، متمتمًا: بل هو كبير عظيم، أعلم منا جميعًا وأرجح عقلًا وأحزم.

كان أبو طالب جالسًا دون بحيرى، فالتقطت أذنه ما انفاحت به شفتاه. فلما أشار على فتاه الراهب أن يدعو محمدًا، قرّ ابو طالب بالاً وهش سرورًا.

حين وصل ابن أخي، شدّ بحيرى ناظره إلى محياه، ولبث شاخصًا إليه، ثم أجلسه إلى جواره، ولاطفه، محتفيًا به كل الاحتفاء.

تناولنا جميعًا الطعام ثم شكرنا بحيرى والرهبان. وإذ هممنا ترك المقام، استملهني بحيرى أنا ومحمدًا.

كأنه أراد أن يناجينا، ويهمس إلينا بأسرار كانت هي الغاية من صنع الطعام فانتظرته مليًا حتى ينبس بشفه، ترك الركب المكان، فدعانا بحيرى إلى غرفة. فإذا جلسنا فيها، انبرى يسألني: ما هذا الغلام منك؟

–ابني.

شمله الاستغراب وتملكه العجب؛ فقطب الجبين، وأدنى الحاجبين الموغلين في الكثافة وقال: لا، ما

هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حيًا، لا بد من أن يكون يتيم الأبوين منذ نعومة أظفاره!

قلت متعجبًا: صدقت! أنا عمه، لكنني أؤثره على أبنائي.

– ما اسمك، يا بني؟

–محمد

–أجل، هو ذاك: محمد أو أحمد.. أسألك بحق اللات والعزى قل لي.

–لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أبغضت شيئًا قط بغضهما.

–هو ذاك، هو ذاك! إذن أجبني بالله صادقًا .

–ثق يا أيها الراهب العظيم وكن على يقين أن ابن أخي لم يجرب الناس عليه كذبًا؛ فهو يبغض الكذب أشد البغض، فاسأل ما شئت !

–الحق ما تقول، يا شريف، لا تضق بكلامي؛ فإني لا اسأل إلا لحاجة في نفسي، والآن، يا محمد، قل لي ماذا تفضل؟

–الوحدة والعزلة.

–وبم تفكر في العزلة؟

–بالخلق والكون، بالحياة والممات، بالآخرة ومثل ذلك..

–وما أحب الأشياء إليك في الكون؟

–الطبيعة .

—ومن الطبيعة؟

–السماء والنجوم .

هل تحلم كثيرا؟

–نعم

–وبعد؟

–أرى أحلامي تتحقق في اليقظة.

– وماذا ترى في المنام؟

بغتة تعانقت النظرات من أبي طالب والراهب العجوز، فالتمع في عينه الزرقاء الذابلة بريق أمل وانتعاش، فقال بلهفة: لم يبق علي إلا أن أقوم بعمل آخر: أتأذن لي أن أنظر ما بين كاهليه؟ التفت أبو طالب إلى محمد، فلم ير منه ردة فعل، فأخذ بتلابيب سربال، وفتحها، ونزع عن كاهليه، فراغ إليه

بحيرى ينظر ما بينهما، فلما وقع بصره على تلك الشامة بلون الخز الأدكن، فاضت عيناه عبرة، وأجهش بالبكاء صارخًا كالصغار، مقبلاً موضع الشامة والدموع تنهمر منه تترى، فقال: السلام عليك يا سر الكتب السماوية، يا وعد المنتظرين، السلام عليك يا أرق الأرواح وأرهفها، السلام عليك يا مظهر لطف الله.. والذي نفس بحيرى بقبضته، إن هذا لهو الذي بشرت به التوراة والإنجيل، وأخبر عنه السلف من الأنبياء والمرسلين. وأخيرًا التقيت به، آه.. يا لسعادتي الغامرة. ويا ليومي المبارك!

ثم خر ساجدًا، وقال: حمدًا لك يا رب حمدا، لقد قر عيني برؤيته وانقضى أجل انتظاري، تذكر أبو طالب أحلام أبيه عبد المطلب إبان ولادته، ومنام آمنة عند الحمل، وتردد على خاطره كلمات حليمة واستحضر حديثها عن غرائبه وعجائبه، فاندفع في تفكير عميق .

عاود بحيرى الحديث، وتوجه بالخطاب إلى أبي طالب: فيه جميع ما بينته الكتب السماوية وذكرته أخبار الماضين، هو أحمد، أو محمد. بشراك، إنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم: معه مفتاح الجنة والنار، تقول عنه الأخبار إن الأرض اهتزت طربًا يوم ميلاده، وتظل مستبشرة بوجوده حتى تقوم الساعة .

ثم تأوّه وأضاف: لقد ناهزت السبعين، ومنذ أمدٍ أترقب ظهور نبي وأترصد دعوته؛ فقد قرأت في أنباء السابقين، وسمعت عن كبار الدين أنه سيمر يومًا ما بهذه البقاع، فجئت إليها، وألقيت بها رحلي ومنذ ذلك الحين، أنا هنا بالمرصاد، عله يمر، فأنال صحبته. لكن البارحة عيل صبري، فجئرت إلى ربي، سائلاً اللقاء بالنبي، ثم رأيت رؤيا غريبة، تبشرني أن انتظاري صار على وشك الانتهاء.

وها أنا منذ الفجر الصديع، أستشرف الطريق، فكلّ بصري، وابيضّت عيناي من التعب فإذا بعجاج يتصاعد من بعيد، لاح خلاله ركبكم وقد كانت تعلوه غمامة، بيضاء كالحمامة. فإذا تقدم قفلكم، رأيت أن الغمامة تأبى إلا أن تظلل العزيز هذا من دونكم.

نازعني الشك أول الأمر، وخيل إلي أنني غير مصيب لكنني أرسلت طويل النظر فقطعت باليقين أن رؤياي كانت صادقة وأن المبشر بظهوره بين ظهرانيكم .

تنفس بحيرى الصعداء وقال لمحمد: أتمنى أن يُمد في عمري، فأشهد رسالتك، وأجود بنفسي بين يديك. لما رأى بحيرى أن الخوف قد استبد بأبي طالب، ودب فيه القلق، قال: هناك من اليهود والرهبان يعرفون عنه ما أعرف، فإذا رأوه خطفوه، أو بغوه شرًّا وربما نالوا من جوانحه، لكنهم لا يتمكنون من قتله؛ فهو بعين الله .

-لما همّ محمد ليخرج بالقطيع، توجه إليه أبو طالب بالقول: ولدي، إن خديجة قد أبلغتك رسالة.

-خديجة الطاهرة؟

-كان غلامها ميسرة يعمل في مالها إلا أنها جمعت العزم لتعرض عليك الخروج في تجارتها، كما أخبرنا ميسرة البارحة، إذ أصحرت مع القطيع.

غطّ محمد هنيهة في التأمل، ولفه الصمت، كان محمد يفكر في الوسيلة التي يخفف بها عبأه على عمّه، كي لا يكون عالة عليه، فخرج أول الأمر بأنعام عمه، بضع ماعز وجمال، يرعاها في البادية، وبعد أن استودعه الأعمام القطيع وكذلك الأقرباء ، للرعي في الصحراء .

وها هو الآن قد قارب الخامسة والعشرين، فعليه أن يقوم بمهنة أخرى يسعف بها عمه، ويعينه على همه فأطرق رأسه وقال: كما تريد يا عم، وتشاء .

قال أبو طالب برزانته المعهودة وذاك الطبع الرفيع: لا زلت محمدي الصغير على أنك غض الشباب، وقد فاق عقلك عقل المحنكين. الأوان قد آن لتعد أنت العدة للزواج؛ خجل محمد من كلام أبي طالب، فأغضى الجفون وتضاعفت وجنتاه حمرة، فقال: مهلاً يا عماه، كي أنظر في الأمر!

-فكر يا ولدي. وإذا عزمت، فتهيأ للسفر، سأعهد اليوم الرعي - إلى طالب.

-قال محمد: شكرًا لك، يا عم.

ودّع محمد أبا طالب، وخرج من الدار، فالأمر خطير وبحاجة إلى التأمل وإحالة الذهن. انطلق - كالمعتاد - صوب جبل النور وغار حراء، حيث كان ينشطر عن الناس إذا رغب في الخلوة إلى نفسه..

استعدت قافلة خديجة للانطلاق، وقد لاحت بينها خمسمئة زاملة حمول وبضع إبل رواحل ظعون. وقد تدلت على الهامة والأذن، منها شرابيب حمر من صوف. مع القفل - عدا ميسرة - خمسون أجيرًا، كثير الترحال، يشرف على أمرهم محمد.

أودع محمد كل رجل عشرة من الإبل، وسلّم ميسرة الإبل الخمس، اعتادت قريش أن تختار من رجال قوافلها مقدمًا تستند إلى رأيه، وترجع إلى أمره، وتقدم له يد الطاعة .في هذه الرحلة، كان محمد يقود أكبر القوافل، وإليه انضم بالسلع نفر من بني هاشم.

تلاحقت روادف الإبل قدمًا وهي تبعد الخطى في اليابسة نحو يثرب. كانت تناهز ثلاثة آلاف، وقد أخذ حراستها ثلاثمئة.

زاغت مكة عن الأبصار، وغابت منها الشعاف والشعاب. واحيط العير بعاري الجبال، بصخور بأحجار، هنا وهناك..

ها هو محمد يعاوده الحنين إلى عمّه وزوجه، فيجثم على صدره سحيق الأحزان.. تذكر ليلة أمسه إذا اجترح أبا طالب الهلع مما خاف أن يتخلّى عمّه عن رأيه فيمانع رحلته .

–سيدي يدعى المكان هذا وادي الأمواه.

كان الركب قد استمر بأدراجه ثلاث ليال بين تلك الجبال.

–اطلع محمد من البعير على ما حوله، ثم جاذب ميسرة القول: أجل، الرواسب أينما تكون معلم على انحدار واسع للسيول فعلينا ألا نحط هنا الرحال.

–قال ميسرة بشيء من الحزم والاتزان، ونبرة لا يفارقها الرفق واللين: لكنه معبر ضيق وطويل.

–مهما يكن فهذه الغيوم الداجنة التي بسطت رداءها على مكة لا تبشر بالخير .

كان ميسرة يدري حقًا أن القيظ إذا اشتد في الصيف، وانهمرت السماء بالمطر فخطر السيول محدق، بل يتضاعف في مثل هذا الوادي فلم ير بدًّا من التأييد فقال: الأمر إليك سيدي، سمعًا وطاعة.

–اذن ليس أمامنا إلّا خيار واحد، أن نستند إلى الزوابي حيث لا يعلوها السيل والرواسب.

–تقوم بذلك وإن كلفنا الجهد.

أدار محمد لحظة يسرة ويمنة، وهو يمشي في ظلام الشقف الشغيف، ثم لوّح إلى الأمام حيث الشعاف والأحجار الضخمة، فقال: يا ميسرة، ما رأيك بذاك المكان؟

أجاب ميسرة، لا بأس به؛ فالصخور تلك ستكون حصنًا حصينًا للركب، اذا انحدرت السيول..

ها هو الليل يسير سيرًا رفيقًا، والغيوم تتراكم، ويركب بعضها بعضًا، فيغط الوادي في ظلام دامس ممّا يحجب مصعبًا وركبه عن الأنظار. وها هم الرجال في القوافل يركنون رويدًا رويدًا إلى الرقاد.

مضت ليال أربع، والركب لا يزال في وادي البلاياي الليلة الأولى، أيقظتني حبات المطر، ومن حولي صرخات " فانطلقت أبحث عن سيدي الأمين، فرأيته يُصحي النيام ويرشدهم فالتحقت به، وأنا على روع ووجل"

تساقطت الأمطار في شدة لم يكن لها ند من قبل ولا نظير، وانهمرت السيول من الجبال، كالأنهار الواسعة العريضة، فالتقت عند موضع، ثم انسالت في الوادي مندفعة عبر مجرى صغير شهدت بأم عيني كيف جرفت السيول الرجال والإبل، وكل ما كان مع مصعب من المتاع .

كان هو ورجاله يستصرخون من ينجدهم في ذعر وذلة وهوان، لكن كلًا كان في شأن يغنيه، في حيرة من أمره وأمر بضاعته، إلا محمدًا، كان ينظم صحبه، ولا ينفك يصيح فيهم أن انجوا بأرواحكم، واتركوا الإبل والمتاع، بيد أن أحدهم لم يعره أذنًا صاغية .

وأخيرًا أطل النهار في أعقاب ليلة ليلاء. وأقلعت السماء؛ فها هم الرجال يبحثون عن الإبل الشاردة. فلم

ينجرف مع السيول بعير وذاك ركب خديجة، لم يمس أثقاله ضرر ما؛ فإن ميسرة كان قد أوثق شدها.
رجع القوم إلى مكة مشاة؛ ليخبروا بني جمح بما جرى وحدث .
وفي الليلة الرابعة، لما رفعنا الرأس عن الوسادة، رأينا بني مخزوم تستعد للأوبة إلى مكة؛ فالطريق كان مفتوحًا.
لكن محمدا خاض ناحية من الماء، ثم تابع السير وئيدًا، والإبل تتبعه دراكا.
لما اجتاز الماء بسلام، هلت القوافل مبتهجة وزغردت مسرورة. واندفعت جميعًا، أراد ميسرة أن يركن إلى الراحة بعض الوقت، فوضع تحت الرأس نعليه، وقام على جنبيه. فمثلت أمامه تلك الأكمة الصخرية التي أطلت منها صومعة بحيرى الراهب. صومعة فريدة، بجدران صخرية منيفة. اتخذت من القمة. برز في بداية ذاك الطريق، رجل ممشوق القامة، فأقبل نحو البستان، وعليه قلنسوة سوداء كقلانس القسيسين، لما وصل البستان، توقف قليلاً، وأخذ يحدق في ناحية من المكان، فقعد ميسرة القرفصاء، والتفت إلى مطمح نظره، حيث محمد مستلق تحت شجرة السدر، وقد اشتمله النوم من الرهق .
مكث الرجل يتأمله طويلا؛ فتوجّس ميسرة منه خيفة، فقام من مكانه، ولبس نعليه، ثم انطلق إليه .
كان الرجل وضيء الوجه، يقارب الخمسين، رأى الراهب الكهل ردّة فعل ميسرة، فراح يطمئنه بتحيّة:
طاب يومك! – وطاب يومك أيضًا — !
أهلًا بك في أرضنا .
رحلة خير وبركة..
–شكرًا
–تقدم الراهب قدمًا ثم تريث وقال: هل لي أن اسألك يا أخي؟
–إسأل، عسى أن تنال مني الجواب.
–من ذاك الشاب الوسيم الراقد في ظل شجرة السدر؟
–هو من قريش، اسمه محمد، رئيس القفل.
–بمَ يعرف في قومه؟
–هو فقير، لكنه ذو شأن عظيم، يلازم الصدق ويصرّ عليه فسماه أهل مكة «الأمين». والآن قل لي يا رجل ما المقصود من السؤال؟
–لا بد أنه الفارقليط، الذي ورد اسمه في الإنجيل
–الفارقليط... من هو الفارقليط؟
–هو أحمد، أو محمد كما يقول العرب. آخر الرسل وخاتمة الهداية الإلهية للبشر. سيظهر عما قريب أمره.

–ومن أين لك ذلك، يا رجل؟

–من صفاته وعلائم ظهوره، هو – بلا ر يب – ذاك الذي مر هنا أيام صباه. ونقل إلينا – فيما ما مضى – بحيرى العالم أخباره. واليوم لاحت لي في السماء – وأنتم تُقبلون – غمامة، تظلل موضعًا من ركبكم دون أن تزايله وتفارقه. وإذ دنوتم، رأيت أن الغمامة تظلل هذا الشاب. وشجرة السدر تلك، حيث نام، كانت منذ أمد سحيق يابسة أغصانها، لكن انظر إليها الآن، طابت وأينعت!، تهصرت عليه لئلا تلفحه الشمس! هذه أيضًا مما ورد في كتبنا.. من علامات نبوّته...

دخلت القافلة المدينة مع المساء، وألقت بباب السوق عصا الترحال، ثم استيقظت – على عادة العرب – بكرةً، وغدت إلى بردى لتتحمم ببارد مائه، الذائب من ثلوج الجبال، ثم بسطت الأحمال واستعدت لتستقبل من يرغب في الشراء، ركبهم لم يصل دمشق إلا بعد يومين من الوقت المعتاد؛ فاكتظت السوق بمثل عروضهم مما جاء بها غيرهم من تجار مكة.

والتأخير يعود إلى بعض الركب؛ فقد ألمّ بهم بين بصرى ودمشق مغص شديد منعهم من الرحلة.

– فلما أحاط سيدي بحالهم علمًا التفت إلي قائلاً: ترى، ماذا نفعل يا ميسرة؟!

–قلت: سوق دمشق خالية من سلعنا الآن، فلو وصلناها في أواننا المحدد كل سنة، فستجد بضاعتنا من يطمح إليها من خيرة المشترين، وإذا ما تأخرنا – ولو ليوم واحد – فسنخسر الخسران المبين. إلا أن محمدًا لم تطاوعه نفسه أن يجشم هؤلاء المرضى عناء السفر؛ فاضطر بنا الأمر أن ننزل في قرية للعلاج؛ مما عاقنا يومين عن المنافسين ثم... وصلنا دمشق، وتجار مكة كانوا قد باعوا البضاعة، وبادروا إلى سلع الروم والشام ولبنان وفلسطين بالشراء.

غدت الشمس تنتزع عن عود المدينة برودة السحر، وتلتقط الندى المتساقط على الأسوار، ومداخل البساتين؛ فيحين الأوان لتروج السوق، وتزداد الحركة ويشتد اللغط والضوضاء.

قال ميسرة، والقلق يساوره: سيدي، فيما سبق من الرحلات قايض ركبنا نفرًا من تجار دمشق، فهل لنا أن نعرض عليهم البضاعة؛ عل في ذلك مخرجًا؟! رد عليه محمد، وقد طافت عيناه الصافيتان بسكينة سماوية.

–افعل ما ترى فيه الصواب.

–انطلق ميسرة ومحمد صوب سوق المدينة المسقف، بعد أن استودعا غلمانهم المتاع. وأخيرًا، لم يتمكن قفلنا أن يبيع إلا نصف سلعه؛ فانفرد بحمله دون القوافل التجارية.

جلس محمد وميسرة على شفا الراكد من السلع، وقد تعلقت منهما العيون بالطريق، متطلعة إلى من يطمح في الشراء ..

تناهت بغتة إلى المسامع جلبة، وتصاعد من الطريق المؤدي إلى السوق ضوضاء، فأمسك كل لسانه عن الحديث، وانصرف عما كان عليه من البيع والشراء، وأدار الرأس صوب اللغط: على حين فترة، تبين أن قافلة ضخمة وصلت دمشق توّا من فلسطين وهي في طريقها إلى السوق. وهذا يعني أن بضاعة مكة ستنفق وتروج! لكن ترى هل من ركب يملك ما يعرضه إلا ركب محمد؟ كما يعني أن يأس ميسرة سينطوي ويزول ويقر منه البال ويهدأ، ثمّ يتبدد الشك في أهلية، محمد وجدارته بأمر التجارة وتدبير القفل... فلو كان العير يصل دمشق حين وصلها المنافسون، لما حالفهم الحظ ورواج السلع كما حالفه اليوم..

10

هلّ على أفق السماء القاتمة، الموغلة في الظلام، ضوء لامع، فسار بهوادة ودنا من الأرض، ثم اشتد لمعانًا واشتد حتى بزغت صفحة شمس مشرقة. وبينما كانت خديجة منبهرة بالطلوع المفاجئ، ومنشدّةً بها ما استغربته كل الغرابة: حلقت ببصرها إلى النور الساطع، ألم فوق هامتها، الغزالة، ثم هبطت على العرصة بهوينى... بأناة، فتألق الموضع منها نورًا... وتوهجًا. وهنا استفاقت خديجة من الغفوة، وقعدت القرفصاء في الفراش، ثم ألقت من النافذة على العرصة، نظرة، والصبح كان قد أسفر فلاح لها في تباشيره، حزم سلع متراكبة، مصطفة، في كل موضع منها، هنا وهناك، انقطعت خديجة لرؤياها في انشراح: «ترى ما تأويل رؤياى

لقد أطلت عليها –بلا ريب– سعادة عظيمة. لكن... ما هي؟ أهي الأرباح الباهرة، أم ما حمل إليها الأمين من فريد المتاع...؟ لا، هذا ليس بتأويل رؤياها؛ وإن كان ما عاد بها محمد من الأرباح لم تحصده من قبل في سالف الرحلات. وإن درّت عليها سلع الشام –كما تبين لها خلال الأيام الثلاث – أكثر مما درّته مكة. لا... لا، هذا أدنى تعبير للرؤيا !

سيدتي، سيأتي اليوم لاستعراض السلع نفر من تجار مكة والطائف، وطلبت إلى الأمين أن يعرج علينا لاستلام الأجرة.

–طابَ يومك، يا محمد !

—وطابَ يومكِ أيضًا، يا ابنة العم

غضّ محمد من بصره، وعقف اليدين على الركبة اليمنى، دون أن ينبس ببنت شفه، فقالت خديجة، وقد خفضت ببصرها إلى الأرض: يا أمين، لك مما اكتسبت من الأرباح، نصيب وخلاق، فاطلب ما

تشاء !

قال محمد: أرباحك من فضل الله، ولم أكن أنا إلا الوسيلة والسبب.

– فأنا أخصك بنصيب منها، سيقدمه إليك ميسرة. ثم قالت: ماذا عساك أن تفعل بالأجرة هذه، يا بن العم؟!

فوجئ محمد بالسؤال، فتمهّل في الرد هنيهة، وقال: لعمي عليّ حق عظيم، نويت أن أضع بين يديه كل ما اكتسبته من الأجر؛ عسى أن أوفي بعض ما له عليّ لكنه رفض وأبى. هو يريد أن يعد لي به عدة الزواج .

فقالت نفيسة: حسنًا، يا أمين، لقد تبادر إليّ من قبل أن أسألك ما منعك من الزواج، وفيك الشباب والوسامة، والصحة، والطهر والسداد؟

فقالت خديجة: يا بن العم، هل لك أن أختار زوجة ممن أراها صالحة؟

رد محمد في استحياء: نعم .

قالت نفيسة: امرأة من بني قومك، فريدة بين نسوة مكة في الجمال والطهر تأمل محمد قليلًا وسكت، ثم قال: ألا تسمينها؟

—إنها سيدتي، وسيدة قر يش، خديجة!

ما لبث أن شمل جبينه الناصع حبات العرق، وطغت حمرة قانية على محياه المشرب شفيف الاحمرار.

أطال محمد السكوت، فبادرته خديجة بالقول: لم لا تتكلم، يا بن العم؟!

رد محمد بصوت خافت: أنت يا ابنة العم ذات مال، وأنا فيه قل وعليّ أن اختار الكفء .

–ما هذا الذي تقوله، يا محمد؛ فليس بين العرب أشرف حسبًا ونسبًا ، ثم إنه لا مثيل لك في الصدق. فيك رغبتي لما حدثني عنك ميسرة وسواه، ولما توسمته أنا، فيك، فإن شئت وهبتك نفسي ورؤوس أموالي كلها، والغلمان والإماء. سكتت خديجة برهة، حتى إذا رأت بوادر الرضا عليه، قالت: أحسن الظن يا بن العم فيمن أحسن بك الظن.

أفاق عمرو بن نوفل على الضوضاء، والدوار يأخذ برأسه، من سكر ليلة أمسه. فصرخ في غضب وهياج: جابر؟

دخل الغرفة على عجل، خادم عجوز، ضئيل الجسم والعود، وقال: طاب يومك، يا سيدي! هل من أوامر؟

– ما هذه الضوضاء؟

– أي ضوضاء، يا سيدي؟

– الدف والزغردة والدبك؟

– سيدي، الأصوات من دار ابنة أخيك، خديجة!

– من دار خديجة! لِمَ

– وكيف لا تدري، يا مولاي؟! ففي الأمس كان حفل زواجها.

–ها، ها، ها؟ زواجها؟ مع من؟

–مع الأمين، ابن عبد الله، ابن عبد المطلب.

–مع الأمين؟ هذا الفقير المسكين، كيف قامت خديجة بالأمر من دون استئذاني، وأنا عمها الكبير، وسيد أهلها؟

–لا، يا سيدي، لم يكن ذلك منها، بلا إذن؛ فقد ذهب إليها أبو طالب وأعمام الأمين يخطبونها، فدلّتهم عليك، ثم جاؤوك، وأنت مع الندمان بين الزق والدنان. – حسنًا، حسنا! فصل الكلام؛ لأعرف ماذا حصل على غفلة مني في سويعات .

أقبل الأمين بحلة زاكية، وقد تطهر واغتسل، وتقلد مهندًا، وركب جوادًا، معه أعمامه وعشرة رجال من قومه.

–نعم، نعم، بدأت أتذكر بعض ما تقوله.

–أجل، يا سيدي، جاؤوك وأنت على سكر ونشوة .

–فسررت بحضورهم، وأحسنت وفادتهم. ثم قال أبو طالب إنه رغب إليك لابن أخيه رغبة. فقلت في بهجة: مرحبًا بمحمد.

–قال أبو طالب: رغبنا ومحمدًا إليك في خديجة، ابنة أخيك. فقلت على الفور أمام من اجتمع: يا معشر اشهدوا عليّ زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله على الصداق الذي تعينه هي وذلك بطلب من أبي طالب.

11

أب.. أب.. هذا ما صاح به جعفر، إذ أقبل ساعيًا من الزقاق، ودخل الدار مبهور الأنفاس.

ترى ما الذي بعث فتى أبي طالب على كل هذه اللوعة والاضطراب !

سأله أبو طالب في قلق وارتباك: ها، علي، أصابه شيء !

قبل أن يهم جعفر بالرد، تعجلت أمّه في السؤال، وقد كانت تطحن الحنطة بالجاروش: حيدر؟ (كانت فاطمة تؤثر أن تدعو ابنها الصغير حيدرًا، وإن كان قد سمّاه أبو طالب علي.

-استعاد جعفر أنفاسه، وقال: لا، لا، لا بأس عليه؛ فهو يلعب مع الصغار خارج الدار.

-سأله أبو طالب: إذن ما خطبك؟

-في الحرم.. بطون قريش على وشك الاقتتال، وشهر السيوف وسفك الدماء! نزع أبو طالب ظهره من حائط الشرفة المجصص، وقام بلا سؤال واستفهام، فارتدى العباءة بسرعة، وانطلق.

لم يمر أبو طالب منذ أربع ليال بالحرم،

بلغ البناء ذراعًا ونصف الذراع، وحان موعد نصب الحجر الأسود، فاختصمت القبائل، كل تريد دون الأخرى أن تنال شرف رفعه إلى الركن. انصرف القوم عن البناء، وتعطل العمل، فجدّ الأشياخ – بلا جدوى – أن يحلوا عقدة المشكلة .

وبذلك صار أبي وأبو القاسم لا يترددان على الحرم، إلاّ أنني لم أنفك أغدو إليه مع أخي طالب، وثلة من بني هاشم ثم نعود ليلاً؛ لننقل إلى والدي، الخبر.«

-ها .. يا جعفر، لم تقل كيف جرى ذلك؟

قال جعفر مبهورًا وهو يجد ليبلغ مبلغ أبيه في السعي وحث الخطى البعيدة: اليوم أيضًا كماضي الأيام تحلقت البطون حول الحجر الأسود، وأخذ الرجال فيما كانوا يأخذون فيه كل يوم، من حديث الأمجاد، فتمادوا في السب والشتم؛ بعضهم يرفع صوته وآخر يصرخ فيهم ويحض المتخاصمين على الهدوء، والالتزام بحق القربى .

لما بلغ الوالد الحرم، معه ابنه، شاهدا الفضاء قد تعجج بالنقع والغبار، وفاض حول الكعبة لفيف من النسوة والرجال والصغار لم ير لكمهم الهائل نظير إلا أيام الحج .ما إن رأى الوليد أبا طالب، حتى ارتقى ركام العيدان، ورفع عقيرته: اسكتوا.. اسكتوا..

تريث أبو طالب هنيهةً، ثمّ تحدث في نبرة تشي بالودّ والعتاب وقال: ما لي أراكم تبغون الفتنة في سبيل الخير!

يا للعجب. تدعي قريش أنها ترعى حرمة البيت وأمانه، وها هم رجالها في الحرم، يسلون السيوف ويسفك بعضهم دماء البعض! ثم ألقى على الجانبين نظرة، وأضاف: ألا تخافون أن يتجاسر الآخرون بعد على انتهاك الحرمة، فتزول عنكم النعم والأمان ويحق عليكم البلاء والعذاب؟

ألا تكفون عن الغي والضلالة، فها هو السيل والجدري والوباء ينال كل يوم من كبارنا وصغارنا.. ألا

ترعوون! كأن قول أبي طالب اللين، أفاق وجدانهم من الغفوة والسبات العميق.

مدّ أبو طالب يده إلى ذقنه الصلب، وطأطأ الرأس قليلًا، ثم أخذ لحيته البيضاء الكثة براحته الضخمة.

شخصت إليه الأبصار في صمت. كأنها عثرت على الحلال للعقدة الغامضة العويصة .

وأخيرًا رفع أبو طالب رأسه، والتفت إلى الجانبين ليقول: لاّ بد من التحكيم.

-تحكيم؟

-تحكيم من؟

-من ذاك الذي يذعن الجميع لتحكيمه؟

-رد عليهم أبو أمية ماذا تقولون إن أحلنا التحكيم إلى القدر!

-تحكيم القدر؟

-أجل، القدر

-كيف؟

-فلننظر إلى الجهات الأربع، ولنجعل بيننا فيما نختلف فيه، أول رجل يدخل الحرم، فنذعن لرأيه بلا منازع.

- لكن..

-لا مجال للجدال. فلندع التردد جانبًا وإلا عادت الفتنة .

- يجب ألا يكون من حاضري المسجد الحرام!

—نعم، ينبغي ألا يكون على اطلاع مما نحن نريده .

-قال الزبير: سأجعل على كل باب من أبواب الحرم الأربع، رجالاً يمنعون الخروج، ثمّ انسل من حلقة الأشراف لينفذ ما وعد.

-وكيف إذا دخل الحرم اثنان أو أكثر معًا؟

-ثم ارتقى أبو أمية ركام أحجار وصاح عاليا ليسمعه الجميع: نبدأ !

انقطعت الضوضاء دفعةً واحدة، وخيم على الحرم صمت عميق دارت الرؤوس جميعا،

- فصاح أبو أمية مستبشرًا من على الركام: هذا الأمين!

-قال الوليد في رضا: الأمين سديد الرأي، يحكم بالعدل، ونحن بنو مخزوم نرضى بتحكيمه.

ضم الأشراف من قريش - في ارتياح - أصواتهم إلى صوت الوليد .. أقبل الأمين بقلب جريح، ممعنًا في أفكاره، منقطعًا لها. لكن ما إن رفع رأسه، حتى رأى حشد الناس محملقين فيه، وتلقاه أبو طالب بمزيد من الرضا والارتياح ثم تداركه بالإخبار، لينزع عنه الحيرة، ويزيل الدهشة.

-أطرق محمد رأسه، متأملا، ثم التفت إلى كبار القوم، قائلاً: أعدوا ملاطًا !

راح جعفر وطالب ينفذان الطلب .

انطلق الأمين صوب الحجر الأسود، ثم نزع العباءة وبسطها على الأرض. ضاقت حلقة المحتشدين من حوله، وأتلعت الصفوف الخلفية أعناقها، تتدافع نحو الأمام، وتعلقت الأنظار بذاك الشاب، الحسن الذكر، ابن الخمس والثلاثين. كل يريد أن يعرف كيف يحل محمد ببنان الفراسة والتدبير، العقدة العويصة تلك !

أحنى الأمين ظهره، ورفع الحجر الأسود، ووضعه وسط العباءة، ثم تعالت منه نبرة واضحة آسرة: لتأخذ كل قبيلة بطرف من العباءة، ثم ارفعوه جميعًا حتى يبلغ موضعه من الركن! نهض الأشراف إلى الأمين، وقد بهرهم ذكاءه وملأهم عدله ارتياحًا، فانثالت من أفواه الحاضرين كلمات الثناء،

أجل، الحجر القابع وسط عباءة الأمين، نال الارتفاع على يد الأشراف، ومن ورائهم لفيف البطون يموج بعضه في بعض، في سرور وحبور .

وعند الركن، أخذ الأمين الحجر الأسود بيده، وحطه في موضعه الخالي، ثم قال: فليأتِ كل بطن شارك في البناء، يصب الملاط؛ كي يستقيم الحجر في مكانه .ها هي الطامة قد انتهت، وغمرة النزاع انجلت، فصار يتبادل الابتسامات، ألد الخصام، ممن كان متعطشا، قبل سويعات لسفك الدماء.

12

أقبل الأمين مع الغروب على الحرم، مرهقًا من عمل كاد، مارسه طيلة النهار؛ فمنذ زواجه بخديجة، أخذ على عاتقه تدبير الأمور خارج الدار: من المقايضة حتى إنفاذ القوافل التجارية إلى اليمن والشام، وإرسال السلع إلى الأسواق الموسمية الرائجة في الأشهر الحرم وأيام الحج، .أنس محمد بالطبيعة منذ نعومة أظفاره، ولم ينقطع عنها قطّ حتى في الأربعينيات وكم تمنى لو حالفته الفرصة ليرتمي في كنفها الهادئ، ويتفيأ ظلالها الوادعة؛ فيخلص إلى عزلته السحيقة ليجوب عالم رموزه..

ها هو محمد قد لبس الجاروق واستعد للانطلاق نحو حراء.كانت عادة المتعبدين من قريش أن يخرجوا من مكة إلى الشعاف ليخلوا إلى أنفسهم في شهر رجب بلياليه وأيامه.

سنّ أبناء هاشم السنة هذه، وعمل بها البطون من بعد، بيد أن بني هاشم ظلّوا يعيرونها اهتماما أوسع، وكان أحرصهم عليها محمد بن عبد الله.

أجل، كان بَعْلي، أبو القاسم، شديد التعلق بتلك العزلة والخلوة، إلا أنني وجدت القلق يعتمل في صدره،

وهو يريد الخروج إلى حراء؛ فقد انتابه عامذاك غريب الأحداث: طالما ألمت بمحمد رؤى ملهمة، تحققت بعد، لكنه منذ طوى الأربعين، صارت أحلامه غريبة، لا يراها إلا وجاءت كفلق الصباح.

ترى هل هو حلمًا ما يراه محمد؟ كلا، شتان ما بين الحلم وما يراه ترى، وشتان ما بين رؤياه وما يسترسل فيه الناس؛ إذ الغفلة عن ذكر الله لا تعتريه، سواء في الغفوة أو الصحوة كما قال هو لي ذات مرة: "تنام عيناي، وقلبي يقظان"

ومنذ ذلك الحين كان يتمثل بين يدي بعلي – إذا أخلد إلى النوم –رجلٌ عظيم الهيبة، ليس له ولا لغيره عهد به. ثم لم تطل إلا فترة قصيرة حتى قال: يا خديجة، أخذ الرجل يتمثل أمامي في الصحوة أيضا.

سألته: متى، وأين؟ قال: في كل آن ومكان، في البدو والحضر، في آناء الليل أو أطراف النهار .. أتذكر أن غمغمة كانت تصل إلى زوجي من بعيد أيام الشباب، لا يظهر عليها أحد غيره، وكان يرى –أحيانًا– ما لا نراه، لكن الغمغمة تلك اشتدت في ما مضى من الشهور، فأصبح إذا خرج وحده، تناهت إليه من الشجر والحجر عبارة التسليم هذه: السلام عليك، يا رسول الله! فيلتفت يمنة ويسرة، ويدير وجهه إلى الوراء، فلا يرى إلا الحجر والشجر .فلما مكث على هذه الحال، أخذ يأنف الطعام، ولا ينام من ليله إلا اللمام، فلاحت عليه بوادر الوهن والهزال .

وإذا حان خروجه إلى حراء، بدا لي في عينيه الذعر، فزعمت أنه توجس خيفة على نفسه، وخشي مما سمع ورأى، ها هو حرّاء، أنيس انشطاره الشاحط، وعزلته المغلقة الكاتمة في جو طلق لا تحتويه آفاق ولا حدود.

ويستوعب محمد من عليائه فسحة فسيحة من الكون بنظرة تستعصي على من أخلد إلى الأرض، ولصق بها.

ها هو محمد على أعتاب الأربعين، وروحه تطل على ما تجري من الفتن والآثام حسرةً وحزنًا، وأملًا حائرًا ، فما عليها إلا أن تتلو فهي ونفر آخر لا تدري من ذلك المأزق مخرجًا ولا فرجًا .

رمق محمد السماء الشاحبة عند الأصيل: فالليل مقبل رويدًا رويدا؛ ليسدل على الربوع سجف العتمة، وتشب النجوم واحدة تلو الأخرى، هيهات من الكون العجيب، العبث، هيهات! لا بد من خالق يدبر نظامه المدهش بحكمة وقدرة. هيهات أن يترك الناس هملًا؛ فالله ليس بغافل عنهم أبدا..

لم يكن محمد يخشى على نفسه.

لا ينفك محمد محفوفًا بقوة قاهرة آنًا بعد آن، لاذ بالطبيعة وأدمن النظر في مشاهدها.. في مظاهرها، لتفيض عليه بوافي العلوم، وغزيرها ..

-طبت ظهرا يا بن العم !

-طبت ظهرا يا أبا القاسم !

هذا علي الصغير وخديجة – أحن الناس عليه، وأوفاهم به – على قيد خطوات من غار حراء، ينفحانه بالتحية مستأذنين بالدخول.

خرج إليهما محمد من الغار في هشة وبشة، رافعًا عقيرته بالترحيب: – طابت أوقاتكما جميعًا! رنا محمد إلى زوجه، وألقى على عينيها الآسرة نظرة تقدير وثناء، ثم مسح رأس علي بحنان.

أتت إليه خديجة بصرّة كبيرة، وجاء علي بجرة طافحة بالماء بينما نال منهما الإعياء؛

كان دأب محمد أن يعود بنفسه إلى مكة ليتزود الطعام إذ شارف على الانتهاء زاده، من يابس الخبز وزيت الزيتون والماء. وقد عهد إلى زوجه الوفية مرات ومرات ألا تجهد نفسها في الخروج إلى الجبل، لكنها أبت ورفضت.

دخل أبو القاسم الغار، ووضع فيه الطعام والماء، فخرج يحمل عباءته؛ ليبسطها على متن صفوان ويدعو عليا وخديجة للجلوس ويتخذ هو بينهما مستقره في اتجاه الكعبة! ما أحب الاثنين إليه، وما أحبه إليهما .

لفهم جميعًا صمت محمد المتأمل، أتدري، يا أبا القاسم، كم أتحرق إليك شوقًا! كيف طاوعتك نفسك الانصراف، أم كيف حملتني شهرًا النوى والفراق، ما بالك بعد الشقة، تحرمني عذب اللقاء؟

صدقني يا أبا القاسم ، لو لم تكن في حاجة إلى الزاد، لكنت أبتغي وسيلة ما لأهفو إليك وراء قلبي المرفرف.

أبي، ابن عمي، يا أحنّ علي من والدي أنت أحب إلي من جميع أهلي، إخوتي، صحبي، حتى أبي.

آه.. ليتك لا تفارقني أبدًا«..

أجل، أجل.. أنا أعرف ذاك حقًّا وأنتما على يقين من شغفي بكما، راح محمد يستفسر خديجة عن أخبارها، ويتسقط أنباء مكة، بينما ضم إليه كاهل علي، محتضنًا .ها هما محمد وعلي واحد، إثر عشرة دامت أربعة أعوام. كانا يذهبان معًا في مكة، ويأنس علي في طرقاتها بحديث محمد.

همّ محمد أن يخرق الصمت؛ فالتفت إلى علي يداعبه: هل صارعت الصغار في غيابي؟

رد ببسمة يشوبها الخجل والحياء: لا .

مسح أبو القاسم رأس علي في حنو ثم توجه إلى خديجة بالسؤال: كيف حال الصغار؟

-بخير، إلاّ أنهم في شوق إلى الوالد .

سأل عن حال زيد وبركة، وميسرة وزوجه، فأخبرته أن الجميع في عافية ويسألون عنه .

–آثرت خديجة القيام – وهي على عهد بحاله هذه – كي لا تفسد عليه عزلته التي طالما سور بها نفسه في مثل هذه الساعات. أما علي، فقد انطلق صوب الغار ليأتي بالجرة الخالية والخوان. ثم أذعن هو وخديجة للانحدار بعد توديع قصير، بينما ظلّ محمد منتصبا أمامهما، ثابتا في مكانه.

في موهن من الليل، وجو تمازجه برودة وقشعريرة، أفاق محمد إثر هجعة قصيرة، ونزح بهامته عن رمال حراء الهشة، ثم قلع من باطن الغار رأسه، وشد بصره إلى الهلال الهزيل في كبد السماء، لم يكن محمد قد لامس هذا الصمت، ولم يعهد هذه السكينة على مدى قيامه الدائب في جنح الظلام

والبرعم إذا تفتح انبثق في السماء بغتة ضوء قوي غريب، خطف بصر محمد وغمر منه مطمح النظر، فساوره الخوف، واعترت روحه رعدة، وجسمه رجفة، ونال رأسه دوران ودوران.. ثم ضغوط وضغوط على الجسم والروح .

شيء ما يبلغ الحلقوم، آنًا تلو آن، فتلم به آلام وآلام لا يطيقها محمد وإن كان صلب العود، ثابت الجنان، كأنها حشرجة الموت، سكرات الفناء،

عاودته الرجفة وتسرّبت إليه هادئ الأمواج، لتغسل الروح في طيف نوري سائل، ولادة، نشأة من جديد. تحول للروح. شعور بالخفة، .. بالصفاء والشفافية، ثم انشراح للصدر وانكشاف عما يغطي البصر والأذن والعقل .

يا لشدة تحول الكون يا لحيويته، يا لجماله وعميق أغواره ..

التف النور فجأة، ثم انبسط، فبرز منه كائن مهاب كل الهيبة، لم يبد غريبًا على محمد؛ فقد سبق أن رآه في أحلام اليقظة، لكنه في هذه المرة، اطلع عليه في أشد الوضوح، فملأ عينيه هيبة: تمثل له رجلًا رائع الجمال عليه جبّة خضراء من الديباج، في هالة من النور السماوي. كان يراه أينما يقلب طرفه في الفضاء. تعالى منه صوت رقيق، لطيف لطف المطر، رنين كخرير السواقي والنهر :

يا مح..مد!

أجابه محمد بصوت مرتعش: ن .. عم ! – إق.. رأ !

–أنا .. ما.. ذا.. أقرأ؟

–باسم ربك !

–كي .. ف.. أق.. رأ؟

–إقرأ باسم ربك الذي خلق !

أنشأ محمد يقرأ معه:

—خلق الإنسان من علق ..

إقرأ وربك الأكرم ..

الذي علّم بالقلم.. علّم الإنسان ما لم يعلم.

انتهت القراءة، وخف الصوت السماوي، ثم عاد المتحدث إلى سابق هيئته، فإذا بالطيف النوري الغامر يعتريه الشحوب، ثم يتوارى ويتوارى ..تملك محمدًا النصب واللغوب، فشعر أن الجسم منه والعظام يدق في هاون، والبدن يتهافت. أحس بحرارة تضطرم في أتون عوده وهامته، ولامس رعدة هيجان كانت تنتابه فيّ شدة. همّ ليقوم على بهت وحيرة، فخذلته الركبتان، وانثنت تحت ثقيل جسمه الأقدام، فانبطح على الأرض ممرغ الجبين، منخرطًا في البكاء..